

بیار مسنار

کیر کیفنارد

ترجمة

الدكتور عادل العوا

دار النشر

کیرکیفبآرد

جميع حقوق الطبع العربية في العلم محفوظة للدار
منشورات عويدات

بيروت - باريس

بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية

Presses Universitaires de France

الطبعة الأولى ١٩٨٣

حياته

وجود جدلي

يرجع الوضع الاستثنائي الذي يشغله (كيركغارد) في تاريخ الفكر الغربي ، اول ما يرجع ، الى حياته الفذة ، وهي مأساة روحية حقيقية تتميز بان تفاصيلها المتنوعة ، وامكاناتها المتنوعة ، تحدّد بدء التفكير الوجودي وهي ستتيح له ، بسائر موازنة صيغه المتلازمة ، تشييد فلسفة جديدة اكثر استجابة للواقع المعاصر من المذاهب السابقة .

ولد (سورن كيركغارد) Søren Kierkegaard في الخامس من ايار ١٨١٣ في (كوبنهاغن) ، وكان آخر ابناء والدين تقدمت بهما السن ، فقد كان ابوه في السادسة والخمسين من العمر ، واما في الرابعة والاربعين ، عندما ابصر النور ، وقد كان الفيلسوف في شبابه شديد التأثر بابيه ، وابوه شخصية غنية ومضطربة معاً : وقد كان في بادىء الامر اعيان صغيراً في (جوتلاند) Jutland يتمرد على قسوة الحياة ، ويدعى (ميكل) بدرسن كيركغارد) ، وقد ثار ثورة عصيان على الله في مشهد جديز باشفاز (العهد القديم) : وبعد ان لعن الاله ذهب يتشد

الثروة في العاصمة وقد اصاب بعض النجاح بعمله بقلأ - عقاداً واستطاع ان يعتزل العمل وهو في سن الاربعين وسلخ بقية حياته طلباً لثقافته العامة . وقد شرع (كيركغارد) الاب ، بعد أن ملأه تأنيب الوجدان من جراء مشهد التجديف والشروط المشبوهة الى حد كبير او صغير مما احاط بزواجه من خادمته بعيد وفاة زوجته الاولى ، شرع يطلب الحقيقة الدينية من اكثر الطرق تنوعاً ، طريق الكنيسة اللوثرية وهي ديانة الدولة وقد كان من الاوفياء لها ، وطريق جماعة الاخوة المورانيين ، وطريق فلسفة الانوار ، ولا سيما من خلال المناقشات التي كانت تجري في اكااديمية صغيرة كانت تلتئم في داره وحيث لمع ، بالدرجة الاولى ، نجم القس (منستر) Mynster ، وهو سيصبح اسقف (كوبنهاغن) .

كان (سورن) الشاب يرجح صحبة ابيه الذي كان يكشف له عن مسيحية ملأى بالقلق على الحياة مع امه واخوته . وكان ابوه يلاعبه بما يهيج خياله باسراف ، وكان هو يحضر خلسة المناقشات الفلسفية التي جعلته يطلع في سن مبكرة على شتى المشكلات وعلى ارهف الحجج والادلة . وقد كان تلميذاً ذكياً ، بيد انه كان صعب المراس جامعاً على النظام ؛ وفي اواخر عهده بالدراسة ظهرت مواهبه الادبية والخطابية بجلاء ، وكان ذلك يكفي لبعث النية على توجيهه للعمل في سلك الكهنوت

حيث كان اخوه البكر يتقدم بتفوق مما سيجعله اسقف (البورغ) : وقد كان العاملون في هذا السلك يربحون ربحاً مجزياً في بلد ذي ديانة رسمية مما كان في وسعه ان يتيح له قضاء سنوات طويلة رائعة في دراسة الفلسفة واللاهوت في جامعة (كوبنهاغن) ، ريثما يعمد الى قران برجوازي .

والحق ان هذه الفترة كان يجب ان تستغرق رسمياً احد عشر عاماً . احد عشر عاماً لم تكد تخصص للدوام بانتظام على الدروس اذا صدقنا مذكرات (كيركغارد) نفسه . لقد كان طالباً متحرراً جداً وذا مال كاف ، عاش بين سنتي ١٨٣٠-١٨٣٨ حياة سطحية مضطربة . كان شغوفاً بالمرسح ، ولعاً بالمقهى ، يعنيه بوجه خاص ان ينال اعجاب مواطنيه باناقة ملبسه وبنفوذه في حلقة صغيرة من الطلاب لغزارة خطبه . وكان هؤلاء الفلاسفة المبتدئون يعالجون كل موضوع . وكانت السياسة تشغل المنزلة الاولى في دراساتهم . وكان تيار الثورة الفرنسية الليبرالي قد خلف في الدانمرك اثراً عميقة : وقد عمد المسرح الى تقويتها اذ كان يجهد ليظل مسرحاً باريزياً جداً . ولكن التأثير الجرمانى كان راجحاً في مجال الادب والدين ، في صورة ما اطلق عليه اسم الابداعية الالمانية ، وهي تمتد على الاقل خلال اجيال ثلاثة ، جيل « العاصفة والوثبة » Sturm Und Drang ، ومن اشهر ممثليه العظام

(غوته) Goethe و (شيلر) Schiller ، وجيل الابداعيين
بالمعنى الصحيح ، (شلغل) Schlegel و (هوفمان) ،
Hoffmann و (تياك) Tieck . واخيراً جيل المانية
الجديدة بزعامه (هاين) Heine .

قرأ (كيركغارد) هؤلاء الشعراء كافة ، وقد كُونوا
حساسيته . ولكن تأثره لم يكن اقل ارهاقاً بالابداعية الفلسفية
لدى (فيخته) Fichte و (شلنغ) Schelling ولا سيما
(هجل) Hegel . وقد كان مذهب (هجل) الذي يوفق في
داخله بين جميع التيارات المثبتة عن المثالية الكانتية يتدفق بغنف
على اوربه المركزية كلها . وقد اخذ اللاهوتيون اللوثريون
الذين كانوا يريدون ألا يظهروا بمظهر المتخلفين ، اخذوا
يعملون على التوفيق بين المذهب المسيحي وبين الزبي الشائع .
وهذا ما لمحض به خاصته (مارتسن) Martensen وهو أحد
الاساتذة المزموقين في (كوبنهاغن) ، ولكن هذا الشرع العقلي
الاستنتاجي المجرد كان سلفاً يضدم كثيراً لمن الناس . وقد
انتظمت حركة مقاومة ترد الهيجلية من حول الفيلسوف
(سيبرن) Sibbern والشاعر (بول مولر) Poul Møller .
ولن يتأخر (كيركغارد) عن الانضمام لهذه الحركة بعد فترة
وبجيزة من وقوعه في الغواية الهيجلية ، وقد صار يغرف الفلسفة
الداغركية على اساس معارضتها للتأمل الجرماني وباعتبارها .

فلسفة وجود (١) .

ولكن هذا الوجود كان يطرح في ذاك الحين اكثر ما يطرح على المستوى الجمالي . فقد فتحت حياة (كيركغارد) المنحلة من الابداعية الالمانية فكرة تفوق عالم المسرح على العالم الحقيقي : كانت الاوبرا أساس تكون موسيقي ترك في حساسية الفيلسوف اعمق الاثر . وكان تأثير (موزارت) Mozart لا يقل عمقاً عن تأثير (هجل) : ولن يكف (كيركغارد) ، طوال حياته كلها ، عن الذهاب للاستماع الى (دون جوان) وينبغي اعتبارها احد الينايع الاساسية التي تنهل منها فلسفته . كان يطلب من (دون جوان) ، في ذلك الوقت ، تسويغ وارضاء نزعتة العشقية المجردة والاحتمالية ، وهي معيار وجوده . وانه لوجود متكلف ، ومضطرب ، وطريق الى حد ما ، يتهديده سلفاء العصر . وقد لمح (كيركغارد) ، كما لمح (موسه) Musset ، ولاسباب مماثلة ، المسيحية باعتبارها مرفأ نجاة ، ولكنه كان يخشى مطالبها العملية ويرجى الى ما بعد فرصة « شفاء جذري »

وقد طرأت حوادث حاسمة ساقته ، بالرغم منه تقريباً ، الى الصعيد الاخلاقي والصعيد الديني . طراً أولاً ما يدعو

(١) انظر بيير منارد : الوجه الحقيقي لكيركغارد - باريز - دار الطياعة بوشن

الزلازال الاعظم . وهذا الحادث الذي يمكن تحديده حوالى سنة ١٨٣٧ يتميز باماطة اللثام عن الخطيئة الابوية . فقد شعر (كيركغارد) بانطباع ان هذه الخطيئة تجلب اللعنة على اسرته وعليه : وفي جميع الاحوال نجده قد دخل عالم الخطيئة وهولن يخرج من افقه ابداً . ولكنه في عين اللحظة التي اصيب فيها بالذهول الاكبر شعر بفرح رؤيته اباه يموت في جو من افضل اجواء المشاعر بعد ان اصطالح مع الله ، ومع ابنه ، ومع ذاته (٨ آب ١٨٣٨) .

وفي هذه الفترة حدثت مرحلة الخطوبة التي احدثت في حياة الفيلسوف وفي مؤلفاته تأثيراً عظيماً جداً . فقد التقى الطالب الشاب في شهر ايار ١٨٣٧ بطفلة عذبة (ريجين اولسن) Régine Olsen ، وهي ابنة مستشار في المحكمة ، وقد ادت مفاتها المبكرة الى اعلان حب خطيب اول لها هو (فردريك شغل) ولم يلبث (كيركغارد) ان شعر بنزول الصاعقة عليه ، بدوره ، وتصف مذكراته اليومية سلفاً ، في شباط ١٨٣٩ ، الفتاة على انها « ملكة قلبه » . وسيتوصل للفوز باعجابها الشديد ، وبحبها له : وفي ١٠ ايلول ١٨٤٠ أعلنت خطوبتهما رسمياً . وبدا (كيركغارد) وكأنه وجد في تايه اولاً ، وفي خطبته السعيدة ، الحافز الملازم 'تنظيمه' كيما ينجز دراسة التي كان اقرب الى اهمالها . وفي ٣

تموز ١٨٤٠ حاز على شهادته في اللاهوت واخذ يعمل في اعداد رسالة بعنوان : « مفهوم التهكم المعزودوماً الى سقراط » وقد ناقشها في ٢٩ ايلول ١٨٤١ .

ولكن مجرى حياته العاطفية ما عثم ان نم عن وجود عصاب قد يكون مرتبطاً بقلق طفولي وبضروب القمع الجنسي . وهذه هي « الشظية في اللحم » الشهيرة التي لا يصعب التنبؤ بطبيعتها ^(١) ما دامت قد حالت دون زواج (كيركغارد) مثلما كانت عائقاً دون موهبته الكنسية . ومنذئذٍ نشاهد قصة حب مؤسفة . ذلك ان الخطيب الحريص على اغراء شريكته ليتذوق احتمالات الحب اللذيذة قد تكشف عن انه عاجز عن اخراج ذلك الى خير الواقع . وقد اصيب بالذعر منذ ان لمح ضرورات الاتصال الزوجي : الافضل ان يموت ليلة زفافه ذاتها ^(٢) ! ولئن اتفق له ، اثناء الازمة وبعدها ، ان أخفى حبه على الصعيد الديني فان هذا الدين سيجهل دوماً الى (الزفاف) .

وبازاء هذا الخطيب المجرد الطاغية ، ولكنه مع ذلك

(١) يؤكد الدكتور ميشيل فولد M. F. Volman في كتابه : عباقرة الفينين اذ العنة هي الشوكة في اللحم التي كان يشكو (كيركغارد) منها ، وقد لازمه طوال حياته باريز ١٩٥٦ (ص ١٣٩) (المترجم) .

(٢) انظر النصوص التي حللها (مسنار) تحليلاً طريفاً في الكتاب المذكور ص ٢٦٧ - ٢٧٠ .

كان موضع اعجاب عميق ومحبة ، شعرت (ريجين) ، على العكس ، بتفتح انوثتها يوماً بعد يوم بينما كان شريكها يجهد ليظل في مجال الاسطورة وعلى صعيد الوعود الاولى . وقد امسى الوضع مضمناً من جراء انصراف (كيركغارد) ، وهو عاجز عن التوصل الى بتر خطوبته بترأصريحاً ، انصرافه الى تحويل اهتمام خطيبته عنه وقد أخذت تبدو عبثاً اسود في نظره . وبعد دفاع جميل عن ذاتها ، رضخت (ريجين) لما لا بد منه : إعادته له في ١:١ تشرين الاول ١٨٤١ خاتمة مشفوعاً بقبلة اخيرة . ولن يميز موقف الخطيبين اللاحق الارتياح في عمق عاطفتها . ولكن (ريجين) استأنفت الحياة وما لبثت ان اقترنت بخطيبها الاول وعاشت حتى سنة ١٩٠٢ حياة هادئة حافلة وتوفيت عن ثمانين عاماً .

بيد ان الهزة التي اصابته فكر (كيركغارد) لم تكن وشيكة الزوال . فهذا الخطيب الشديد الوعي يألم من هزيمته اعمق الالم بالرغم من انه يتساءل : ألا يجب ان يرى في ذلك علامة تدل على موهبة اسمى ، موهبة العزلة امام الله . وبينما كانت جميع امكانيات حياة سعيدة مرتبطة بالمجرى السوي للحب الاول تمر امام خياله المبدع ، كانت « شظيته » التي لا تطاق تعود به الى النظر في الخطيئة وفي عقابيلها الوجودية . ولا ريب في انه عاش الازمة كلها بوعي سيء ؛ ولكن برعاية الله . وقد شعر بالحاجة الى الاعتزال بعيداً عن مسرح الحادثة ليتاح له تنظيم افكاره

واستخلاص مغزى الحوادث . وعلى هذا فان الرجل الذي
ابخر في ٢٥ تشرين الاول ١٨٤١ على سفينة المانية لم يكن ذاك
المهزوم الذي يفزع من ماضيه وحسب ، بل كان مسافرا يحقق اول
ما يحقق المبعدة الضرورية لتحويل رؤيته ، ولكي يمضي ،
بعدئذ ، شطر اكتشاف الوجود

ان الفترة التي تبدأ هنا هي اغزر فترات حياة
(كيركغارد) . لقد عاش عيشاً مرفهاً في مدينة غرينة كبرى يجيد
لغتها وثقافتها ، واعاد هذا المهاجر الطوعي جمع اكثر
الاحتمالات تنوعاً وركزها حول مشاغله الاساسية . كان واثقاً
من واقعية حبه وراغباً في انازة حياته كلها بوفائه لـ (ريجين) .
وقد لقي من الحوادث الصدمة اللازمة لاسباغ الصبغة الخيالية
المطلوبة . وقد حفزه الازدهار الفكري في الاوساط
(البرلينية) : لم يحتفظ من دروس (شلنغ) التي كانت تحظى
بحماسة النخبة الجامعية كلها الا بكلمة الواقع على انها دعوة
للفؤدب خزم الى مجال الوجود . ولكن أي وجود يدرس إن لم يدرس
وجوده الخاص ، وكيف يدرسه بدون تسويغه على نحو من الانحاء
في نظر (ريجين) ، ونظر الآخرين ، وربما ، من يدري ، في نظر
الله ؟ ذلك ان هذا التحليل الفلسفي والادبي هو ايضاً محاسبة
لنفس من شأنها ان ترقى بالاضطراب الديني الى منزلة ازمة
ينبغي حلها حتماً .

ان هذه المشاغل كلها ، وهذه الامكانيات كافة ، ستظهر في حالة من أعظم حالات التحرر النفسي التي عرفها الأدب الحديث . وان مختلف النزعات ستتحقق فيها في صورة أشخاص سيتجنب تفاعلها جدلاً جديداً يستعاض فيه عن الافكار ، في جو ابداعي ، بانماط متجمعة تجمعا لا يقل روعة عنه لدى (موسه) او (بلزاك) Balzac . وفي ٦ آذار ١٨٤٢ عاد (كيركغارد) الى (كوبنهاغن) حاملاً معه لقاح سنوات طوال . وفي سنة ١٨٤٣ سيظهر كتاب « المتناوبة » ، وهو كتاب اساسي ينيره من جانبيه « الخشبة والرعدة » وكتاب « التكرار » . وفي سنة ١٨٤٤ ظهر كتاب « مفهوم القلق » الذي سبق ظهور كتاب « مراحل درب الحياة » الذي نشر سنة ١٨٤٥ وهو كتاب رئيسي يستأنف فكرة « المتناوبة » ويعمقها . وان صورة (ريجين) تسود في هذه المؤلفات كلها ، وهي كلها تصدر مباشرة عن ازمة الخطوبة ولكنها ، بالرغم من ذلك ، تحدد فلسفة كاملة يمكن ان تبقى بصرف النظر عن الحادثة التي نشأت عنها . وقد اشير الى القيمة المفارقة لهذا الموقف منذ سنة ١٨٤٤ ، الموقف بازاء الهجلية ، اشير لها في الصفحة الاولى الرشيقة من كتاب « الفتات الفلسفية » ، وهي نواة المذهب الوجودي . ولما قصر الجمهور عن الفهم رجع الفيلسوف الى مهمته سنة ١٨٤٦ بكتاب ضخيم عنوانه « الحاشية الأخيرة غير

العلمية على « الفتات الفلسفية » وهو يبرهن بصورة منهجية على ضرورة الاقلاع عن المذهب ويمثل التعبير الفلسفي الأكمل عن فكر (كيركغارد) إذ يجلب أنماطاً إيديولوجية جديدة ومقولات وجود جديدة ويستخدمها طلباً لمزيد من تقدم البحث عن الواقع الاساسي . وفي وسعنا ان نلّم بفكرة أدق عن خصب الكاتب حين نتذكر انه بدأ في تلك اللحظة ذاتها سلسلة أخرى من المؤلفات : « المقالات الدالة » ^(١) ويبدو ان إخفاق دور القس فيها ينهض بدور يماثل دور الخطوبة مع (ريجين) في إنتاج اثره الرئيسية .

وعلى الرغم من انبثاق هذه المؤلفات عن الأزمة العاطفية فقد انتهت في الواقع بأن رفدت (كيركغارد) بتوازن مرتبط بحياته كاتباً خصيصاً مبعجلاً ، وقد حظي عدد كبير من اثره بنجاح كبير : اشتهر (كيركغارد) في القصر ، ولدى الطلاب ، وحتى على مستوى الصغار . ومنحه تأليف كتبه الكثيرة سبباً ليعيش ويكتسب عادات عمل سليمة . ولئن استمر في حياته الباذخة ، ولا سيما على صعيد النفقات الغذائية ، فانه كان يجد تسلية مهدئة في نزواته اليومية عبر الحقول وفي إحياء (كوبنهاغن) القديمة وفي جولاته الواسعة بالعجلة بين الغابات الدانمركية . وعلى هذا فان فترة ما بين سنتي

(١) انتج زهاء خمسين مقالة بين سنتي ١٨٤٣ - ١٨٥٠

١٨٤٣ - ١٨٤٦ كانت فترة سعيدة في حياته المضجعة ، ومن الجائز الاعتقاد بإمكان ان نرى في نشاط (كيركغارد) المبدع وفي مختلف ضروب الارضاء الذي جلبه له ما يقضي على عقده ويوفر له راحة نفسية .

ولكن عاصفة جديدة هبت وحملت على إعادة التساؤل في كل شيء . ذلك ان مناظرة صحفية استثارها المؤلف ذاته بدون تبصر وقد نجم عنها سلسلة من الحملات في « الكورسير » ، لم تكتف بالسخرية من مذهبه ، بل ومن شخصه الفيزيائي . وقد فوجيء (كيركغارد) وشعر شعور الفضيحة حين رأى أن الساخرين لا يقفون إلى جانبه . وقد ساءه أن يفقد شعبيته على مستوى رجل الشارع إساءة بالغة . وغضب من ناحية أخرى لأن الكنيسة لم تدعمه في معركة كان يزعم انه يمثل فيها القوى الروحية . وأعادت معركته مع « الكورسير » سنة ١٨٤٦ تحريك « الشوكة في اللحم » كما أثار زواج (ريجين) بـ (فردريك شلغل) ١٨٤٧ طائفة من الحركات الباعثة على القلق ، منها مشاجرته مع أبيها المستشار (أولسن) (تموز ١٨٤٨) وقد تبعها بعد قليل موت هذا الأخير (١٨٤٩) . وقد توترت علاقاته بـ (منستر) وأخذ (كيركغارد) يعتقد بوضوح مطرد موقفاً رجعياً ، ولا بد من أن ننظر من هذه الزاوية إلى القسم الأخير من حياته وهو يمتد من سنة

١٨٤٦ - ١٨٥٥ .

إن التوتر النفسي الجديد ينزع إلى جعل الفيلسوف يعي الحالات والمفاهيم الأكثر مأساوية : وقد انتهى ذلك في آخر المطاف إلى تعريف جدل اليأس وتقييمه ، وقد حلله سنة ١٨٤٩ في صورة « الداء المميت » . ولكن تطوره على الصعيد الديني كان هو الأشد ارهاقاً . ولنلاحظ أولاً أن هذا الصغيد ينزع إلى مزيد من السيطرة على المذهب كله ، ولكن الأمر يتناول ذيانة شخصية ممتعة يائسة لا تجلب الطمأنينة بل الانفصام . ويتجلى ذلك أول ما يتجلى في اللهجة الجديدة للمقالات الدينية ، مثل « المضحي الأعظم » و « الجماهيري » و « الخاطئة » ، وقد ظهرت سنة ١٨٤٩ وفيها تبدو مشاغل (كيركغارد) الشخصية بوضوح تام . غير أن « مدرسة المسيحية » تكشف سنة ١٨٥٠ النقاب في حلة موضوعية أكبر عن قلق المؤلف بإزاء تطور العقيدة المسيحية التاريخي . وفي هذا البحث تتجلى أزمة عقائدية بروتستانتية قاسية القسوة كلها حيال الديانات الراهنة ، بدءاً باللوثرية الدانماركية . وقد جاء موت الأسقف (مينستر) سنة ١٨٥٤ ، وقد أخطأ بعض المداح حين حولوه إلى « شاهد على الحقيقة » ، أي إلى رسول ، فأشعل نار البارود . وسيحتج (كيركغارد) احتجاجاً رسمياً ، تزداد لهجته حدة لدرجة الهجاء ، على (مينستر) وعلى خليفته

ومادحه (ماترنسن) Maternsen وعلى فساد الكنيسة الراهنة
فساداً هجلياً . وقد وقع (كيركغارد) وهو يوزع كراسات
« اللحظة » ، وهي محرقة لاهوتية حقيقية ، وقع فريسة
المرض ، نقل إلى المشفى حيث خمدت أنفاسه بعد شهر من
العذاب ، وقد لقي من الاحسان المسيحي ما يكفي لجعله يعفو
عن الناس كافة ، ان لم نقل انه قد غفر لأخيه (١١ تشرين ثاني
١٨٥٥) .

الفلسفة

١ - التهكم السقراطي بوصفه منطلقاً

تقابل فلسفة (كيركغارد) إرادة حاسمة جداً للعشور في حياته الصميمية على حقل تجربة تختبر فيها القيم التي طرحتها التقاليد أو الزي الذائع من حوله . وان كتابه الأول ، وهو رسالة حول « مفهوم التهكم المعزو دوماً إلى سقراط » (١٨٤١) ، يبين سلفاً هذا الموقف الرئيسي بأعظم جلاء . وعنده ان التهكم يفيد في ان ينطوي بأن واحد على نقد الايديولوجيا التصورية أو الاجتماعية كلها ، وعلى الاعتراف من بعيد بمجال الوجود .

وعلى هذا فان بطل التهكم لن يكون (هجل) وقد تغاضى (هجل) عن التهكم وحدّد له قيمة وثوقية ، بل (سقراط) الذي لن يكف من أول الكتاب إلى آخره ، بل في مؤلفات (كيركغارد) كلها أيضاً ، عن أن يبدو رائد فلسفة الوجود ورئيسها . ولكن الأمر يتناول بالطبع (سقراط) الحقيقي ، وهو يباين صورة المواطن الصالح التي وصفها (كزنوفون) Xénophon مثلما يباين صورة الرسول المبشر من

خلال المحاورات الافلاطونية . انه يتناول (سقراط) الأكثر قرباً ، في نهاية المطاف ، من الرسم الكاريكاتوري الذي رسمه (ارستوفان) Aristophane . منة إلى التماثيل السامية التي أقامها له أتباعه والذائدون عنه . يتناول الانسان الذي يرفض قبول مجرى حياة معاصريه وآرائهم والذي يقفجر ، بأسئلته الأساسية ، الزخرف الزائف ويعود بمخاطبيه للنظر في الفراغ الذي أحدثه على هذا المنوال . ان (سقراط) الذي بلغ من جراء ذلك درجة الوعي الناشئ : ان ذلك هو لا شيء ، ولكنه في الوقت نفسه بدء مطلق .

ومن شأن الابداعية الالمانية انها تزعم استئناف تقاليد هذا التهكم السقراطي . ذلك ان (كانت) Kant ، حين فتح باب المثالية أمام (فخته) Fichte الذي يؤيد قدرة المرء المبدعة على حساب المعطى ، إنما أكد لا جوهرية التصور . وقد مضى الابداعيون على طريق (فخته) بأكثر مما ذهب إليه (فخته) نفسه وخلقوا على هذا النحو مجال النزوان والخيال العايش . ولكن أطماعهم ، وهي بلا ريب أطماع فسقة ، لما تصب نجاجاً فيما يبدو ، وان الصعاب التقنية التي تصطدم بها المؤلفات الدرامية والابداعية المستوحاة من هذا المثل الأعلى لدى (تياك) تحيط اللثام عن إخفاقاتها الجمالية . وقد أبرزنا لا تخلق (لوسيند) حيث حاول (شلغل) تقنينه «وجود شاعري»

الاخفاق على البصعيد العملي... وأخيرا فإن الجهود الشاقة التي
انفقها (صولجر) Solger لتعريف جدل العقل من أجل ان
يتوصل في نهاية الأمر إلى إبادة الفاني وإعدام العدم إنما تظهر عجز
الابداعية عن تعريف مثل أعلى آخر في المجال الانتولوجي
والديني ، اللهم إلا مثل استقالة الشخصية استقالة انضمامها في
وحدة الوجود..

... والنتيجة هي ان من الواجب العزوف عن التهمك
التنفيذي والاقتصار على التهمك التأملّي الذي يحذّرنا من الجد.
الزائف الذي تتحلّى به الحياة البرجوازية ومن الجد الزائف في
التأمل الهجلي. مثلنا يحذّرنا من العبقرية. الزائفة للوجود
الإبداعي.. وهويدعونا إلى ولوج ميدان حرية الفكر الحقيقية ،
في ذاك البستان الخفي ، بستان الشعور الفردي حيث يصدع
نداء الاله المجهول .

وعن مذهب التهمك ينتج كذلك طرد المرضي الصحيح
من مجال المأساة وإعادة دمجهم في مجال الدراما الباطنية . وسيدرس
(كيركغارد) صعب هذا الانتقال في كتاب « المتناوبة »
(انعكاس المأساوي القديم على المأساوي الحديث) .. وهو
لن يحققه على نحو مرضٍ إلا في مذهبه المتأخر عن التهمك الفكه .

٢ - فلسفة مراحل الوجود

كانت رسالة « التهكم » تبين ان لدى مؤلفها سجلاً من الأفكار المتسعة أقصى السعة ، وهي تمضي من الفنون الجميلة حتى اللاهوت ، متوسطة الفلسفة القديمة والحديثة . وهذه الرسالة تكشف النقاب أيضاً عن إرادة جلية جداً لايخراج كل هذا المضمون إلى حيز الوجود تبع المشكلات المطروحة على وجدان حديث ، أي على وجدان ديني مستنير بالواقع المسيحي .

لقد فرضت أزمة الخطوية ، تلك الأزمة العنيفة ، على هذه المحاولة سعة جسيمة وأتاحت في الوقت نفسه مزيداً من الدقة في الطريقة . ولقيت رغبته في خلق فلسفة وجودية ما يشجعها في بيانات (شلنغ) الواقعية النزعة خلال عزلته الناشطة في (برلين) . وقد عمد (كيركغارد) إلى تحليل دقيق تناول تفاصيل شخصية مجسمة إما بنتيجة الثقافة الأوسع أو بسائر العقد العاطفية الأعمق . فقد كان يسعى لتسوية نفسه أمام (ريجين) ، وأمام ذاته ، وأمام الله . وهو يحاول اسباغ معنى على تجربته ، معنى جلياً جلاء يكفي لتوجيه سائر حياته بحسب الاتجاه الذي يستخلصه على هذا المنوال . وعلى هذا فان الأمر يتناول بالدرجة الأولى عملية تنقية فلسفية ، بغية

الوصول إلى القيم التي ستخرج سليمة من التجربة .
وسيتجلى هذا التحليل عبر عدد كبير من المؤلفات ،
وستكون لغتها لغة إبداعية ، أي ان المؤلف يستخدم فيها إلى
حد كبير جميع التسهيلات التي يضعها العصر في متناوله .
مجموعات متنافرة لتغير اللهجة ، بل لتغير النوع الأدبي ، في
الكتاب الواحد ، اعترافات حقيقية أو افتراضية بتوقيع مستعار
حول هذا المفهوم الوجودي أو ذاك (القلق ،
التكرار . . .) ، نقد مؤلفين ومؤلفات ، عرض صور
شخصية ، تعبير أحلام وتأويل حالات عصائية : ان ضخامة
هذه المواد المستعجلة وتنوعها يكفلان بكل بداهة أصالة أدبية
معينة .

ولكن الفلسفة تطالب بما هو أكثر من ذلك . انها
تطالب ، مهما كان طراز التعبير واللهجة الممتازة ، بأفكار ،
وبتفاعل جدل ما بين هذه الأفكار . فليس يكفي ان نفرغ
مضمون شعور ونعرضه حتى يحظى بمنزلة في مستوى فلسفة
وجودية . ولا بد من ان ينتظم هذا المضمون على نحو يميز
تعريف أنماط وجودية مشفوعة كلها بأمثال قيمية تعريفاً دقيقاً
أعظم دقة تستطيع . وستكون فلسفة الوجود أو في نجاحاً كلياً
تمكنت من تعريف أنماط أساسية وأتاحت إقامة نظام مقارنة أو
تفضيل أو تطور حيوي بين تلك الأنماط . ولن يقصر

(كيركغارد) عن ان يستخلص ذلك بوضوح مطرد من خلال ما نشر من آثاره المتعاقبة . لقد كانت مراحل الوجود تقابل ، بادىء ذي بدء ، الامكانيات المختلفة التي كانت تطرح عليه اختياراً مأساوياً وحسب . وهو سيشعر ، بقدر تقدمه في الوجود ، شعوراً آخذاً بمزيد من الإرهاق ، بعلاقات هذه المستويات من الحياة بعضها ببعض . ولذا فان الأمر لم يبق أمر الوقوف على أحد هذه المستويات دون سائرهما كلها ، بل الأمر هو الاستجابة للدواعي العليا التي تدفعنا إلى المضي قدماً ، والاضطلاع في لحظات الأزمة بالقفزة الحاسمة التي تنقلنا من المستوى الجمالي إلى المستوى الأخلاقي ، ومن هذا المستوى إلى المستوى الديني (أو إلى المراحل المتعاقبة التي تؤلف هذا الواقع الجدلي بوجه خاص) .

١ - المرحلة الجمالية

يتسم الواقع الانساني الأول الذي يتبينه (كيركغارد) بالمرحلة الجمالية . وهذا المستوى من مستويات الحياة يقابل في الحق قيم الابداعية التي تفرض ذاتها عندئذ على انتباه معاصريه ، ولا سيما على وجود المتأنيب الذي كان ، كما المعنا ، يمثل أول تجزئة قام بها فيلسوفنا والتي لما تنزل زوالاً تاماً من سلوكه أبداً .

ويندوان من اليسير تعريف هذا المستوى الجمالي بإرضاء الحساسية ، ومثاله صفات (السينياد) Alcibiade ، بطل المتعة الفورية ، وقد كان عرضة لنقد (سقراط) المتهكم ومحبه . وعلى هذا فان المرحلة الأولى ستُعرّف باعتبار مبدئها مثلما تُعرّف من حيث موقفها الحيوي .

ولكن تعمق التحليل يبين نقض هذا الرأي الأول . ذلك ان من يتحدث عن الحساسية إنما يتحدث عن التنوع . وان وراء (السينياد) أشخاصاً آخرين يمكن اعتبار انهم يعربون عن هذه القيمة ذات آلاف الامكانيات ، من الطفل الذي ينقله العصفور الأزرق إلى دنيا الأحلام ، حتى (علاء الدين) المنكب على تتبع الخيرات المادية ، المادية تماماً . وعندما ننظر عن كثب أعظم في هذا التحليل نجد انه يستطيع ، برغم ذلك ، الوصول إلى الكشف لدى جميع الأبطال الجمالين عن عنصر مشترك في شخصياتهم ، ألا وهو الرغبة . وهذه الرغبة تتجلى بكل وضوح في طماحها الشمولي ، في شكل رغبة عشقية أجاد فهمها حقاً الفلاسفة الاغريق والشعراء الابداعيون .

وقد لجأ (كيركغارد) ، في آخر الأمر ، إلى آثار (موزارت) ليطلعنا على قوة النزعة العشقية وعلى قدرتها على تنظيم الوجود . ان حاجب (فيغارو) والزاعي (ذا المزمز السخري) ، لا يزالان يعربان عن إمكانيات مثالية . ولكن

صورة (دون جوان) تترجم ، على العكس ، قوة الهوى الطاغى الذي لا يكتفى بالسيطرة على شعور البطل كله وانما يثير من خلال حركيته الجامحة كل اختلاط الاشخاص الثانويين وكأنه يسمّهم على امتداد خطوط قوته . ان موسيقى (دون جوان) التي تشير إلى انتصار هذه الفتنة الرهيبة تعبّر إذن خير تعبير عن طماع الوجود الجمالى وانتصاره .

غير ان انتقاد المرحلة الجمالية ما عثم أن ربا بقدر ابتعاد الأمل عن قلب (كيركغارد) ، أمل (دجونة) شخصية ، وأمل إمكان حياة غرامية سوية . وسيظهر هذا الانتقاد في حلة حوار . « المأدبة » حيث يجهد المتخاطبون لا ابتلاع الادعاءات المسرفة بالحياة العشقية الجمالية . وسيتناول أبرع انتقاد غرض هذه الحياة العشقية الحقيقي : ان هوى الغرام يضع الانسان بأسره في علاقة مضحكة مع هذا الكائن الغريب المحروم من أية فائدة حقيقية ، الكائن الذي يدعى امرأة ، وهو يجذف في الوقت ذاته ما يؤلف قيمة الموقف الجمالى نفسه ، أعني النشاط الفكري .

وعلى هذا يجب ترميم العشقية على نحو يسلخ عنها هذا جانب من جوانب الارضاء المادي والكمي مما تكشف عنه حة ، مهما كانت . منفرة ، لاثحة ضحايا (دون جوان) وهم يحصون عدداً (ألف وثلاثة ! . . . ألف وثلاثة !) وكما نقلع

عن أن نرى في الغواية فناً متميز تميزاً خاصاً ، حيث يقتصر الرجل على هدف ان يسعى ليكشف للمرأة عن ذاتها ، وبدون ان يقع في شرك الامتلاك الجسدي . ان اغراء (يوهانس) فتاة واجتذابها نحوه بدون الاهتمام بامتلائها هو منهاج الحياة الذي يعرضه مرة أخرى في « المأدبة » ، بعد ان حكى تجربته في « مذكرات غاو » .

بيد ان هذا المفهوم عن الوجود ان استطاع ان يأسر لباحث جمالي منحط يترصده السأم وداء العصر ، فانه لا يقدم لضحيته نفعاً مناظراً . ذلك ان الغواية ، مهما كان نخطها ، لا تجلب للمرأة سوى البؤس وعدم الاستقرار . وتلك هي سلفاً حالة البطلات الثلاث التي وصفها (كيركغارد) على انها « خطيبات العناء » (ماري بومارشه) التي أضناها سفر (كلافيكو) ، و (الفيرا) التي ضحت حياتها كلها وهي تمقت (دون جوان) مقت غرام ، و (مرغريت فاوست) التي استحالت براءتها المخدوعة جنوناً . ومن المحتمل أيضاً ان يكون مصير (يوهانس) الغاوي مصيراً ممثلاً ، وهو (كورديليا) الحادة التي لم يحل تأسيسها دون اللعنة .

لقد أخذ المستوى الجمالي بالتآكل تدريجياً خلال هذه الأوجه المختلفة التي تثيرها هذه الدراسة : الرغبة بوصفها مطلقاً متوحشاً ، ونخواء التألق (الداندي) على الصعيد

العاطفي ، وواقع العناء الغرامي . وينتهي الأمر بالباحث إلى أن يتساءل في نهاية التحليل : أليس أسعد هؤلاء الأفراد المشغوفين بطلب اللذة هو ذاك الذي يعتبر أشقاهم : انه المعتزل الذي لم يعيش حقاً ، والذي اقتصرت حياته على اسقاط هذه الامكانيات المختلفة ، انه على الأقل يرتدي قيمة اسطورية شاعرية .

٢ - المرحلة الأخلاقية

لئن كان من العسير تعريف مرحلة جمالية مبعثرة بين كثرة إمكانات متباعدة ، فانه من اليسير جداً ، على العكس ، تمييز المرحلة الأخلاقية ، لان المرء يتعلق سلفاً بحكمة توحيد وب حياة منسقة تحكمها معايير أخلاقية . ولكن اللوسام وجهه الآخر . ذلك اننا حين نكتشف هذا المستوى لا نعثر على وسيلة لا يضاحيه بمثل مدرسي من طراز مثل (دون جوان) . ولكن (كيركغارد) ، الحسن الحظ ، لا يعجز أبداً : وعندئذ نراه يقدم لنا في معرض تماثيلنا النصفية بطل هذا المستوى الأخلاقي إذ يجيبنا في « المتناوبة » بأنه سيكون بطل الحياة الزوجية ويعطينا هذه المرة إبداعاً أصيلاً هو المستشار (ويلهلم) الذي يذود عن قضيته الخاصة ، قضية زواجه السعيد في صيغة دفاع بليغ ، والحق ان فكرة المستشار (ويلهلم) لا يعوزها ، من

ناحية أخرى ، النفاذ ولا الأصالة . فبين نظرية الحب الابداعي المتميز بنزول الصاعقة وبالمتعة الإلهية ، بيد انها عابرة ، متعة « اللحظة الحلوة » ، وبين النظرية البرجوازية القائلة باتفاق اقتصادي واجتماعي فيه يترتب على الواقع الفيزيولوجي (وهو بالرغم من ذلك مما تجهله الفتاة) انه يستخلص الحب بالضرورة في أثر الزواج ، يرسم (كيركغارد) صورة الحب المسيحي ، وهو منحة سخية يقدمها شخصان اعترفا امام الله بانتظامهما المتبادل المسبق . وعند ما نرقى إلى هذا المستوى نجد الدفاع عن الزواج يمتزج امتزاجاً وثيقاً بتمجيد الحب . إن الحب الزوجي الجدير بهذا الاسم لا يمكن ان يكون في الواقع سوى إرادة الاحتفاظ بلطف ربيع الحب الأول مع تذوق غذوبة ثمار الخريف . وعلى هذا النحو فان الزواج هو بالدرجة الأولى اختيار أمام الله ، وحيث كل إنسان يختار نفسه بنفسه عند اختيار زوجه : ان الزواج يدخل في الحياة الواقعية ، وهو يهب الرشاقة إلى الشخصية التي وعت أخيراً جد الأخلاق ، ويتيح للإنسان الخلق ان ينسى مصيره إذ يكافح عندئذ عن أهله وحياته .

ولكن هذا الامتداح الوائع للزواج ، ونحن نجده في « المتناوبة » . يصطدم باعتراضات واقعية لا يسنى كتاب « مراحل درب الحياة » ان يفندھا . وهذه الاعتراضات تصير ، كما هي الحال على الصعيد الجمالي ، أكثر ما تصدر ،

عن حضور المرأة ، هذا الكائن العاثر الذي يعسر تثبيتته في علاقة محدّدة . وهذه الصعوبة تبلغ هنا أوجها ان صح ان المرأة ، كما يقول (كيركغارد) ، تضع نفسها على المستوى الجمالي ، ولا تتكشف كل التكشف إلا على الصعيد الديني . وعلى هذا فلا يخلو من مجازفة ان ننقل إلى الواقع الزوجي الفتنة الحامضة التي تتمتع بها الفتيات ؛ ولكن لم يبق من السهل ، فيما يبدو ، ان يتأمل الرجل الراشد وهو في الدنيا جمال أرملة الخاصة وقد غدا جمالاً غيبياً مطلقاً . ولا بد على الأقل من أجل ان تمضي حياة الأسرة على أحسن وجه ، من ان يرضى الرجل بالبطولة الأخلاقية في الحياة اليومية من جانبه ، وهي الوسيلة الوحيدة لصرف امرأته عن النوسان الخطر باسراف بين الاستمتاع الجمالي وبين العزوف الديني .

ومن الجلي ان مثل هذه المهمة تتطلب بلا ريب موهبة ايجابية . ولذا لا يمكن اعتبار الزواج حلاً عاماً كما يتمنى المستشار (ويلهلم) . ولا بد من النظر الى جانب الحال النمطية في امكان افر حلول استثنائية ، ومن البين تماماً ان من يعزف عن الحياة زوجية استجابة لنداء العبقرية الدينية « معلقاً الحياة الاقصى لثمن الاعلى » انما يبلغ مستوى وجود اسمى من مستوى اكمل الأزواج .

ان اضمحلل الزواج يقود حتماً الى انحطاط التخلق

كله . فالتخلق لا يعرف النزعة الكلية التي يحسب انه قد بلغها
الا على مستوى ما يزال مجرداً الى حد كبير . ومن شأن الصعوبة
العظمى التي تشعر بها معظم النسوة من اجل تحقيق جدية
الاخلاق ، وضرورة ان توفر للرجال حياة خاصة خارج
الزواج ، كل ذلك يدل في نهاية الامر على ان الاتجاه الاساسي
للوجود انما يجري داخل الشعور الفردي وينم عن التأثير الحاسم
للالة في حالات الاختيار التي يفرض انها حالات حرة . وان
عظمة البطل الزوجي تقاس بانتصاره على الزمن ، ولكنه يحتاج
لمعونة الله حتى يولج الشخص الانساني في السرمدية بدروب
طريقة دوماً .

٣ - المرحلة الدينية

ان أحداً لا يماري في ان الدين يؤلف في نظر (كيركغارد)
مستوى متميزاً من مستويات التفكير والوجود . وقد عرف هو
نفسه منذ نعومة اظفاره وسطاً دينياً يمتد من العبادة حتى التأمل ،
وقد اريد له منذ وقت مبكر ان ينتمي الى السلك الكنسي ، وقد
نمى (كيركغارد) ، من ناحية اخرى ، شخصيته من حول هذا
المركب السري الناجم عن خطيئة ابيه وعن اصداثها المختلفة في
وجدانه وشعوره . وعلى هذا النحو نجدنا وقد دخلنا منذ وقت
جد مبكر إلى الواقعين اللذين يكونان الدين الشخصي لدى
مؤلفنا :

الروحي المسيحي بعقائده ومفازاته الخاصة من جهة أولى ،
ومن جهة أخرى الاشتداد النفسي الذي لقيت به الانسرة
المزعزعة الاركان هذا الاعتقاد الجمعي من خلال القلق
والخشية والرعدة .

وعندما تحدت موهبة (كيركغارد) الإدييه بدقة تجلي
هذا الانجاه الروحي على الفور . وقد اشار هو نفسه الى ذلك في
بحثه بعنوان « تفسير » ، ويعني تفسير مؤلفه الذي انصرف الى
اعداده سنة ١٨٤٨ . اذ قال : « ان المؤلف كان » وما يزال
مؤلفاً دينياً » . ولكن من الممكن فهم هذا القول بالاضافة الى
العاملين المقومين اللذين اشرنا اليهما . ومن جهة أخرى ، فإنه
قد اوضح المستوى « المسيحي العام » ايضاً جيداً في السلسلة
الكبيرة من « مقالات دالة » وقد نهلت في الحق من عين ينبوع
سائر بتحوته ، ولكن موضوعيتها متحققة بأن واحد من جراء
نوع الموعظة الموجهة للجمهور وبتوقيع مؤلف يعترف بها دونما
اشكال . ويبرز من خاتمة ان المؤلفات الدينية الاخرى كانت
على العكس بتوقيع مستعار على اننا نجد فيها الاعتراف
الممنوه والوجودية الجدلية للمراحل السابقة . وانما يتكشف هذا
المستوى الجديد من مستويات الواقع بعلاقته بالمرحلتين
الجمالية والاخلاقية : وهي علاقة جذدقيقة جعلت المؤلف
يجهد في سبيل انارتها وتمييزها بوضوح
ولعل كتاب « الخشية والرعدة » يظل ، في آخره

المطاف ، افضل مدخل الى المستوى الديني . فقد كتبه سنة ١٨٤٢ ، ونشره سنة ١٨٤٣ ، وهي فترة تقابل مرحلة تفاؤل نسبي كان (كيركغارد) يلمح فيها امكان اعادة خطوبته المفسوخة : ومن هنا تنشأ هذه الخطة العالمية المؤلفة من محاولة تلافي نقص اخلاقي بزيادة المعين الكامن الروحي . وان الهدف الرئيسي للكتاب : هو اظهار ان المستوى الاخلاقي ليس مطلقاً ، وذلك من خلال قصة تضحية (ابراهيم) . فهو لا يكتفي بالامحاء امام الاوامر الدينية المعارضة لمطالبه الخاصة ، بل انه يستطيع ، بعد تدخلها ، ان يبعث من جديد وجه العناية الربانية المجلو . وعلى هذا النحو لم يتردد (ابراهيم) ، لاطاعة أوامر (يهوى) ، في تضحية (اسحق) . ولكن (اسحق) قد اعيد اليه بسائر تخليه عنه بالذات . ولا ريب في ان تخلياً مماثلاً سيعيد إلى (كيركغارد) خطيئته التي فقدتها ؟ ولكن هذه الفرضية ذاتها توجب أن يكون (كيركغارد) قد رقى سلفاً مستوى (الايمان) ، وهو المستوى الذي سيظل الكاهن الأعظم حارسه وبطله ، كما كان (سقراط) حارس (التهكم) وبطله^(١) !

أ (مثالية المرحلة الدينية . - إن القارئ الحديث

(١) لقد عولجت هذه المسألة بأنتم تفصيل مرموق في فصل عنوانه :
» (كيركغارد) واستخدام صورة (ابراهيم) الرجودية ، في الكتاب المشترك بعنوان
» (ابراهيم) اب المؤمنين « - (باريز - دار نشر سرف ١٩٥٢) .

الذي عرف وجود المراحل الثلاث يستغرب إذ لا يجد المستوى الديني في كتاب « المتناوبة » . والحق ان هذا المستوى لا يوجد فيه وجوداً صريحاً : بل لابد من الاعتراف باننا لانجد المؤلف يتناوله بغزارة ووضوح في التركيب الكبير المسمى « مراحل درب الحياة » على نحو ما فعل في الكتاين الاخرين . ولكن لعل هذا الانطباع ناجم عى الاسراف في مطلب التناظر وعن تجاهل السمة الخاصة بكل غط من هذه الانماط الثلاثة من انماط الحياة التي حللها المؤلف . ان المرحلة الجمالية مرحلة طاغية ومتكاثرة بذاتها : انها المباشر ذو الغائيات المتنوعة والمتنافرة . والمرحلة الاخلاقية يمكن التعرف عليها بصورة اجمالية بالتنظيم المادي للوجود بحسب معايير الاخلاق ، وهي معايير كلية . ولكن المرحلة الدينية هي الدعوة الى الذاتية العميقة ، والنداء لعبادة الله الخفي ، والصمت الناجم عن ذلك . وهذا السر ، هذا الصمت ، ان كان من شأنها الحيلولة دون التعرف الى الديني بثوبه او ينشئده ، فانها ، برغم ذلك ، يقابلان واقعاً حقيقياً حركياً ، واقعاً هو اسمى واقع ، واغنى واقع ، وهو يهيمن على جدل الوجود بأسره .

ان المرحلة الجمالية والمرحلة الاخلاقية قد تشغلان

المسرح وحدهما ، وهما ليستا مرحلتين أو نمطين من انماط الحياة .
الا بفضل وجود المرحلة الثالثة أو النمط الثالث . وانما ينجم عن
ان الديني هو الذي يمنحنا معنى الغائية ومعنى الشكل اننا
نستطيع ان نميز منذ النبع هذه الرغبة الملحة التي تسعى بدون
تراجع للعثور على مخرج مرضٍ على هذا المستوى الذي لا
يحتوي على مثل ذاك المخرج . ونحن انما بفضل الديني الذي
يعطينا معنى الجهد الروحي نستطيع تصور « جدية الاخلاق »
التي بها تغزو الحياة الاخلاقية بعض الكثافة في العمل وفي
التحقيق . ثم ان الديني هو الذي سيحفظ هذين الامرين
وينقذهما . ومنذئذ فان الديني هو الذي يتيح المقارنات ، وهو
الذي يبدأ باقتضاء الاختيار ، من قبل ان يحدد صدى التقدم في
جميع هذه المراحل المتعاقبة ، وهي ستكشف في تتبعه مثلما تقود
الذرى الموقوفة خطى متسلسلة الالب الى الذروة البعيدة التي
كانت تخفيها ، ولكن بدون ان تكف عن ان تقود خطاه الحازمة
نحوها .

غير ان كل نظام من الواقع الاعلى يتجلى في بادىء الامر
بالاضطراب الذي يحدثه في ضروب الواقع المطروحة من قبل .
وعلى هذا النحو نجد المستوى الديني يظهر في « مراحل درب
الحياة » ، خلال مقالة بعنوان « مجرم - غير مجرم » ، وهي لا تخلو
من تشابه باعتبار الاصل مع « الخشية والرعدة » . وان اهم
مقاطعها هي اعتراف (ف . تاسيترون) . واذا حللنا هذا

المقطع (١) تحليلاً نفسياً دقيقاً وجدنا الجهد الرامي الى تصفية العقدة الاساسية في شخصية (كيركغارد) بطريق التأويل المسيحي . ان قصة خطيئة الاب وعقابيلها ، وهي قصة اليمه ، والقصة المؤسفة لحب (ريجين) ، تنتهيان ، في آخر الأمر ، وبعد افراغات جزئية غنية ، الى جميع ضروب التخيل الخرافي ، الى تصور جديد « للشوكة في اللحم » . وقد مضى (كيركغارد) ، في اثر (باسكال) ، الى ان يحدّد في ذلك مرض المسيحي وشرط وجوده المألوف ويجهّد الى ان يختار من بين المواهب المتعددة المطروحة امامه الحياة الاقسى ، حياة العزلة ، والاستثناء الديني ، في رعاية خاصة من الله .

ب (حقيقة المرحلة الدينية : الألم والذاتية . - والواقع أن

مضمون هذا الوجود ، ومادة هذه الصورة ، لم يتضحاً كل الوضوح في نظر (كيركغارد) إلا في الازمتين التاليتين : ازمة سنة ١٨٤٦ وازمة سنة ١٨٥٤ . فقد ابانت له مناظرته مع (الكورسير) ان الصبغة المسيحية قد سلّخت عن

(١) يمكن الرجوع لمعرفة الضرورة المطلقة لتطبيق التحليل النفسي على كل فلسفة وجودية إلى كتاب « الوجه الحقيقي لكيركغارد » ، ولا سيما « المدخل » ص ٣٣ - ٣٨ . كما يمكننا تتبع تطبيق الطريقة على التحليل النفسي لـ (ف . تاسيترن) بالثروة الرائعة لأحلامه وأساطيره وعقده العصابية في الكتاب المذكور ص ٢٦٣ - ٢٨٤ .

العالم الحديث واوضحت قوة خصوم الكنيسة الرسميين ، ولكنها اظهرت ايضاً ضعف الكنيسة المؤسف وقد فاز القسس والاساقفة بالعلاوات وبالاوسمة بينما كان الفيلسوف يناضل وحده في جو من تمزق قلبه وهزء الجمهور . وستغدو فكرة العزلة داخل الالم الفكرة الرئيسية ذاتها في تأملاته . وقد وسع (كيركغارد) ، على المستوى الفردي ، معنى الذاتية والوجود الداخلي ، وعلى المستوى الديني ، ادخل نوعاً من مسيحية معذبة سرعان ما تجاوزت اللوثرية الرسمية .

ولم يلبث صراعه مع الهجلية ان اتاح له من ناحية اخرى ان يدقق في مذهبه . فقد بدا (هيجل) ، باعتبار مزاعمه الخاصة بتأملاته المتعالة ، بدا على انه نهاية سلسلة من خطأ أساسي ، هو خطأ الابداعية كلها حين لم تنظر الى المسيحية الا من جانبها التاريخي : فلئن حنطوا المسيحية فانما فعلوا ذلك لا يداعها مدفن الرهبان ولتجاوزها . وقد ابرز (كيركغارد) بقوة السخف الاساسي الذي يصم هذا الموقف « التحديثي » أو « التقدمي » في صعيد الدين : ان اية مصلحة ممكنة لا تقوم بين المسيحية وبين فلسفات من طراز الهجلية أو الماركسية ، ما دامت هذه الفلسفات تعتبر المسيحية مرحلة تاريخية ينبغي بوجه الدقة تجاوزها .

وقد اكتفى (كيركغارد) في بادىء الأمر بان يرد على

المزاعم الايجابية والسلبية للمذهب بنشر كتاب « الفتات الفلسفية » وقد اقتصر على تأكيد الحقوق الثابتة دوماً للوجدان الديني الراهن بازاء التأمل المجرد . وقد اضطره عدم فهم الجمهور الى ان يقدم في « الحاشية » مجموعاً حقيقياً ضد الهجلية وفيه كان المستوى الديني يحيط اللثام أخيراً عن اهميته الحقيقية . وقد اظهر (كيركغارد) بعد انطلاق تهكمه القوي انطلاقاً رشيقاتاً عدم كفاية دين اجتماعي محض مميّطاً اللثام عن خططه .

ج (المحايثة والتعالى . - ان المسيحية لا تنتمي إلى مجال الموضوعية ، بل إلى مجال الذاتية . وان المشكلة الأولى المطروحة على كل إنسان يرغب في ان يغدو مسيحياً حقيقياً هي ان يكتشف ما يدعوه الفيلسوف باسم « الدينى أ » ، اي دين المحايثة . ولا يخشى (كيركغارد) لكي يطلعنا على ذلك من اللجوء الى اناس غير-ينيين من امثال (سقراط) لدى و (ليسنغ) و (هامان) Hamann و (جاكوبي) Jacobi لدى المحدثين . وترجع اهمية هؤلاء المفكرين إلى أنهم طرحوا تساؤلات صادقة وأعادوا بها المشكلة إلى منطلقها الحقيقي .

ولكن المطالب المسيحية تكشف النقاب عندئذ عن وجود ما يسميه الفيلسوف باسم « الدينى ب » ، اي مجال التعالى . وهانحن أولاً ندخل مجال (الايمان) بطريق ضيق ، هو طريق

« العذاب الديني » ، وهو المشاكل الاعلى للتهكم السقراطي او للشك المنهجي . وهذا الايمان يتجلى على اكثر الاصعدة تنوعاً في حلة هبوب اسوأ العواصف . انه ، فيما يتصل بالحياة الباطنية ، محنة ليل الحواس ، حيث ينبغي على الفرد ان يعزف عن ذاته . وهو ، فيما يتصل بالحياة الاجتماعية ، اقامة علاقة مناظرة مع العالم ، وهذا ما يجعل المسيحي يبدو في حلة خصم (قيصر) ، بل عدو الجنس البشري .

واذ ذاك سيظهر الالم في جميع اشكاله ، وستقتصر الحياة الصميمية مع (المسيح) ، بدلاً من انقاص الالم ، ستقتصر على المضي به الى اسمى وجهات النظر . وذلك صحيح بقدر ما ان « الداء المميت » سيوضح ان اليأس المفجع سيبقى دوماً هو درب الوصول الى الدين الصحيح . ولكن المسيحي المتألم مع المسيح سينتهي بان يقبل مرارة (الصليب) التي لا يسبر غورها ، وبان يفهم المعنى الحقيقي للوعد : « ان نيري عذب وحلي خفيف » .

ولن يفتأ (كيركغارد) يذكر بمنهج هذه المسيحية المتأزمة الذي يقتضي مجابهة جميع انواع تنازلات الكنيسة الراهنة . وهذه المعارضة الجذرية التي تجلت سلفاً في « مدرسة المسيحية » (١٨٥٠) ستقوده الى المواعظ المؤثرة في بحث « اللحظة » والى حركة الانفصام التي ستحدّد نهاية وجوده الزمني .

٣ - الفكاهة التهكمية نقطة وصول

ولكن هذا الموت لن يظهر في نظر فكر تأملي ، في منطق مذهب ظل على الدوام يحتج على العمل الخارجي في حقل الدين ، والذي لم يكن ليعترف الا للقديسين الأصيلين. بحق الشهادة على الحقيقة ^(١) . وعلى هذا فان (كيركغارد) ليس شهيداً ، بل هو مسيحي متألم لم يستطع البتة ان يوفق ، لا في قلبه ولا في عمله ، بين القيمتين اللتين عرّف بهما بوجه الدقة ديانة (المسيح) ، بوصفه منحة ، و (المسيح) بوصفه انموذجاً ، وقد ساقه عجزه عن تحقيق محاكاة (يسوع المسيح) بالقداسة ، وذاك هو المثل الأعلى لتصوره الديني ، كما ساقته رغبته في ألا يخدع جاره ، ولا ان يخدع نفسه بعبادة خارجية تسمو على ضغطه الروحي ، كل ذلك جعله يخترع مذهباً طريفاً هو مذهب المجهول الديني ، ويبتكر بين المراحل الجمالية والدينية واقعاً متوسطاً هو الفكاهة التهكمية ، او التهكم الفكاهي ^(٢) ، مما يتيح

(١) انظر بوجه خاص : حق الموت في سبيل الحقيقة : العبري والرسول ، مقالة قيمة نشرت سنة ١٨٤٧ .

(٢) لقد حللنا بصورة بطولة هذه المقولة الوجودية في كتاب « الوجه الحقيقي لكيركغارد » ص ٢٣ - ٩٧ - ١٧٦ - ١٧٨ - ٣١٦ - ٤٣٣ - ٤٤٢ - ٤٦٢ - ٤٦٣ .

له بوجه الدقة انقاذ هذا المجهول .

والحق ان هذا الواقع المبهم ، واقع الفكاهة او التهكم الفكاهي ، هو الذي يتيح افضل ما يتيح فهم الطبيعة الدقيقة لمحاولة (كيركغارد) كما يتيح تقدير مدى نجاحها . لنلاحظ بهذا الصدد ان فلسفة الوجود تنطوي بالتعريف على ميثاق اصيل مع الاخفاق . ان من ينجح على الصعيد الجمالي يسمى (سوفوكل) Sophocle أو (موزارت) : وهو لا يتفلسف ، بل يخلق تحفاً خالدة . اما النجاح على الصعيد الاخلاقي فانه يمثل في معيار المثل المؤلف الآتي : « ليس للسعداء من قصة » ، وبالطبع ليس لهم من فلسفة . ان النجاح الديني ، اعني القداسة ، ليسخر من كل تسويغ قصوري أو وجودي . انه ليس سوى نداء ، وانما الاجابة ذاتها تصنع في حضن الله . ولكن من لم يكن (دون جواناً) الا بالفكرة ، ومن لم يتزوج (ريجين) ولم يجسد في صورة خوري قرية صغيرة مثله الانجيلي الاعلى ، انه ، بالتعريف ، وبانخفاقه الثلاثي ، ذاك الذي يتضح لتقدير الامكانيات المجهضة . ولا بد من ان يكون المرء فريسيًا حقاً يرفضه بدون شفقة من هذه المستويات ، حيث لا يخلو تحليله الواعي من ان يكشف عن جوانب مجهولة .

ذلك انه لا بد من بطولة فريدة في إطلاق الحكم حتى يبلغ

في هذه الشروط منزلة الصدق الكامل ، والتقدير الصادق للقيم
غير اليقينية . ويجب كذلك توافر تعاطف سخي قريب جداً من
الاحسان حتى يستطيع فيلسوف الوجود ان يعمد نفسه بنفسه
بتواضع كريم على انه « شاعر الديني » .

منتخبات

أ - التهكم ، مقولة جدل تمهيدية

١ - التهكم السقراطي : ان التهكم السقراطي ، بفضحه مذهب (هجل) ، يمهد السبيل أمام فلسفة وجود مسيحية

(سقراط) ، (سقراط) ، (سقراط) ! علينا ان ندعوك ثلاثاً ، وانا امضي في دعائك عشراً اذا اقتضى الأمر حقاً . فقد يحتاج العالم ، كما يقال لنا ، الى جمهورية ، الى نظام اجتماع جديد ، ان لم نقل الى ديانة جديدة . ولكن أحداً لا يفتن الى ما يحتاجه العالم بنتيجة الاختلاط الذي أوقعه فيه هذا القدر الكبير من العلم . انه انما يحتاج ، بوجه الدقة ، الى (سقراط) ! ومن ناحية اخرى ، اذا فطن أمرؤ لذلك ، وبالأحرى اذا وثق الناس برأيه ، فانما سيرهن ذلك على اننا اقل احتياجاً اليه . ان اكثر ما تحتاج اليه حقبة من الحقب الضائعة ، هو على الدوام أقل ما تعيه وتنبه له . وهذا أمر جد طبيعي ، لأنها ، خلاف ذلك ، لا تكون حقبة ضائعة .

وعلى هذا فان عصرنا يحتاج لمثل هذا التقويم الاخلاقي والتهكمي . ولعل ذلك ما يحتاج اليه دون سواه ، لانه يتبين انه

يمثل اخر ما به يهتم . وبدلاً من تجاوز (سقراط) فان مصلحتنا الأولى تبدو في الرجوع الى وجهة نظره ، اعني ان ثمة طريقتين مختلفتين للفهم ، ونحن لا نرجع اليه رجوعنا الى نتيجة نهائية ظهرت لانقاذنا من بؤسنا الاسوأ (فذلك لو حدث لكان من شأنه ان يحذف كل تمييزين طريقتي الفهم) ولكننا نرجع اليه رجوعنا الى اخلاق جديدة تنظم حياتنا اليومية .

جائز تعريف الوضع السقراطي بالمثل الآتي . عندما لا يفعل انسان ما هو عدل ، فذلك لانه لم يفهمه . ولو انه فكر على نحو مغاير ، لكان ذلك مجرد وهم . وأما اذا أكد انه فهم فانه يكون قد ضل ، واذا كرر تأكيديه كان ذلك دليلاً على انه يقف على مبعدة مائة ميل عن الفهم . وعلى هذا ترى ان (سقراط) مصيب لانه عندما ينهض انسان بفعل عادل فانه لا يخطيء حتماً ، واذا لم ينهض به فذلك لانه لم يفهمه : ان المعرفة الحقيقية لما هو عدل ستدفعه سريعاً الى النهوض به ، وصنعه ، وينعكس ذلك في سلوكه كله ، ان سبب الخطيئة ليس اذن إلا الجهل .

ولكن ايان نجد مبدأ الخطأ آنذاك ؟ لم يكن (سقراط) بعيداً عن اكتشافه وعلاجه : ذلك ان ليس من تحديد جدلي للانتقال بين فهم شيء وبين إنجازه . وما ينبثق المذهب المسيحي ، بوجه الدقة ، إلا في هذا الانتقال . وهذا المذهب المنخرط في هذا الدرب يصطدم بالخطيئة ، ويدركها في الارادة ، وينتهي من

ذلك إلى مفهوم التحدي ، ويعمد لبلوغ في الجذر إلى إقحام عقيدة الخطيئة الأصلية - ذلك ان سر التأمل ، لسوء الحظ ، من حيث نسيج مفاهيمه ، إنما يقوم على خياطة لا تعثر على طرف النسيج ، ولا تصل إلى عقد الخيط . وعلى هذا النحو ، وبها من معجزة ، ينجح التأمل في خياطة غير محددة ، أي في نقل الابرّة طوال ما تشاء . ولكن المسيحية ، على العكس ، تعتقد الفرزة الأخيرة بفضل المفارقة .

وهذا الانتقال ضروري (ومن ناحية أخرى كل شيء في مذهب هجل يخضع للضرورة) في فلسفة الأفكار المحضّة ، حيث لا يبالي الباحثون بالفرد المشخص . وليس ثمة أية صعوبة في الانتقال من فهم شيء إلى تحقيقه . وتلك هي وجهة نظر الاغريق باستثناء (سقراط) ، لأنه أخلاقي ، أخلاقي باسراف ، فلا يستطيع قبول ذلك . ويمكننا القول ان ذلك هو سر الفلسفة الحديثة كلها ، وهي كلها تمثل في « أفكر ، إذن أنا موجود » ، تمثل في وحدة هوية الفكر والكون ، بينما تنادي المسيحية : ليحدث لك بحسب إيمانك ، وهي تطرح وحدة هوية الكون والإيمان . وعلى هذا المنوال نكتشف ان الفلسفة الحديثة ليست أكثر ولا أقل من انها وثنية . ولن يكون ذلك هو الأسوأ ، لأن المرء لا يكون في علاقة جد سيئة إذا ما اقترب من (سقراط) . ولكن ما يضاد « السقراطية » حقاً في تلك

الفلسفة إنما هو اعتبار هذه الشعبة من المسيحية ، أو الموافقة على اعتبارها .

« الداء المعيت : القسم الثاني أ .

التعريف السقراطي للخطيئة » .

٢ - التهكم التأمل في منزلة بين منزلتين

الشك والتأمل

بيد ان للتهكم ، من ناحية أخرى ، وجهاً نظرياً أو تأملياً . فهو يظل بالتأكيد النظرة الأكثر وثوقاً مما نستطيع أن نلقيه على ضروب تناقض الوجود وعيبه وسخفه حتى ولو تأبرنا على اعتباره مرحلة تمهيدية . وعلى قدر ما يبلغ التهكم كل هذا الجانب من الواقع ، فان بعض الناس قد يميلون إلى خلطه بالهزاء والهجاء والسخرية . والحق ان التهكم شبيه بهذه الأمور تماماً ، ما دام يقتصر على إدراك السخف ، ولكن التهكم يتعد عن ذلك فور اعرابه عما يلاحظ ؛ ذلك ان التهكم لا يتوخى حذف هذا السخف . وهو لا يختلط بالعدالة القادرة على جعل العقوبة متناسبة مع الاثم المكتشف ؛ والتهكم لا يقترح كذلك ، مثلما يقترح المضحك ، طريقة للمصالحة ورأب الصدع . انه على العكس تماماً ، يشدّ أزر ما هو سدى في السخف ، ويجعل التفاهة أكثر عبثاً . وان ما يمكن ان ندعوه مقصد التهكم لا يرجع إل وساطة بين العناصر ضمن وحدة

أعلى ، بل على العكس في سدى أعلى .

لننظر الآن إلى التهكم في لحظة انعطافه شطر الوجود بأسره ، وإذ ذاك نجده من جديد يؤكد تضاد الكون والظاهرة ، طباق الوجود الداخلي والوجود الخارجي . ولذا نجدنا أميل إلى توحيد هويته بهوية الشك بقدر ما انه يمثل السلية المطلقة . ولكن علينا ان نتذكر ، بادىء ذي بدء ، ان الشك ليس سوى مقولة تصويرية ، بينما نرى ان التهكم سلوك باطني للحياة الذاتية . وانه ، من ناحية ثانية ، هو أمر عملي بالدرجة الأولى ، وانه لا ينطوي على لحظة نظرية إلا لكي يرتد إلى الصعيد العملي . وبعبارة أخرى ، ان التهكم لا يعنى بالموضوع ، بل بتحديد الخاص لذاته وحسب . فإذا توصلت الحياة الذاتية إذن إلى اكتشاف ان لا بد وراء الظاهرة من ان يكون شيء ما قد اختفى ، وهو شيء غير معطى سلفاً في الظاهرة ، فان خاصة التهكم هي ان يتطلع إلى الحفاظ على شعور المرء بحريته ، وذلك على نحو أن الظاهرة تبقى كلها محرومة من الواقع في نظر المرء . وهذه الحركة اذن تعارض الشك كل المعارضة . ان المرء لا يكف في الشك عن بذل الجهد للنفاذ إلى الموضوع ، وان مصدر عدم توفيقه يرجع إلى ان الموضوع لا يلبث أن يفر من أمامه . أما في التهكم ، فان المرء ، على العكس ، لا يكف عن السعي للتملص من الموضوع .

وهذا الجهد ينتهي على الأقل بان يمنحه ، في كل لحظة ، الشعور بذاتيته الخاصة ، والشعور بان ليس للموضوع أية واقعية . ان المرء عند الشك يواجه خطة هجومية لا تكف عن القضاء على الظواهر ظاهرة تلو أخرى ، بغية إمالة اللثام عن الكون الذي يتفانى المتفانون للكشف عنه وراء الظواهر . أما في التهكم فان المرء ، على العكس ، لا يكف عن التراجع وهو يشاهد في كل ظاهرة واقعها الخاص ، حتى ينقذ ذاته ، أي حتى يحتفظ بذاته حيال الكل في حالة استقلال سلبي .

وأخيراً ، فان التهكم ، بقدر وعيه واقع ان الوجود الموضوعي ليس له أية واقعية ، ينتهي بالاعراب عن تلك القضية اعرابه عن شعور تقي ، ومن الممكن ان نميل إلى اعتباره نوعاً من التأمل . والحق ان وقائع الدنيا (أي منظومة الظروف والعلاقات العالمية) تفقد في التأمل ، ان صح القول ، قيمتها : ولكن الأمور لا تبلغ هذا المبلغ إلا إذا أبرزت العلاقات الحقيقية التي طرحها الله نفسه حقوقها المطلقة في الوقت ذاته . ان التأمل الورع يعلن ، من ناحية أخرى ، أن كل شيء سدى ، ولكن بقدر ما يتيح هذا الموقف السلبي أبعاد كل عناصر الاضطراب عن النفس ويدخل إلى مسرح الشعور (ذاك) الذي يوجد وجوداً سرمداً . أضف إلى ذلك ان الروح لا تنفي ذاتها من حقل هذه القضية عندما تعلن خلال تأملها

الخاشع ان كل شيء سدى : انها لا تؤلف استثناءً متميزاً ، بل على العكس ، يجب عليها الاسهام في هذه الابداء الكلية ، حتى ان معارضة (الالهي) لا تنفيه وإنما تتيح له الانفتاح بحرية في القلب الذي فتحه هذا التأمل ذاته . وعلى هذا النحو ينتهي الفكر الديني في هذه الكتابات الروحية الأعمق إلى النظر لشخصيته المحددة الخاصة ذاتها على انها أشد الأشياء بؤساً .

أما على صعيد التهكم فان اعلان السدى الشامل يتضمن على العكس تحرير الذاتية . وكلما غدا العالم سدى ، تخففت الذاتية وخلعت من مضمونها وأعادت غزو حرية حركاتها . وبينما ينهار كل شيء في السدى ، فان شخص المتهم يخلص بذاته من هذا السدى الكلي عندما يعتبر ان عبثه الخاص قد فات . انني أريد طوعاً أن يكون كل شيء عدماً في نظر التهكم . ولكن من الجائز ان نفهم كلمة عدم هذه على أنحاء شتى . ان العدم التأملي هو اضمحلال العالم المشخص في كل لحظة ، وان تلاشيه يحدّد بالمعنى الصحيح طريقة تكوينه . ولكن العدم الصوفي ، إن كان عدماً حقيقياً في نظر التضور ، فان أحد أنواع العدم الغني بالمضمون ، شأنه شأن هدأة الليل ، شريطة ان يكون للمرء آذان يسمع بها . أما عدم التهكم فانه صمت الموت الذي يتابع التهكم من خلاله ما ندعوه رقص الجنائزي بكل ما في العبارة من ابهام .

« مفهوم التهكم - القسم الثاني -

اعتبارات تمهيدية . النهاية » .

٣ - انتقاد التهكم الابداعي

بطريقة تحاكي الهجلية

يتضح إذن ان هذا التهكم لم يستهدف خدمة الروح الكلي . فهو في الحق لم يكن مرحلة من مراحل الواقع المعطى الذي يترتب على مرحلة جديدة ان تنفيه وتكبته ، بل كان كل الواقع التاريخي الذي يجد نفسه معدوماً ليحل محله واقع عفوي . وكذلك لم يكن الذاتية الأولى لان الذاتية كانت معطاة سلفاً مع العلاقات بالعالم . لقد كانت ذاتية ممجدة ، ذاتية مرفوعة إلى القوة الثانية . ونحن نرى في الوقت ذاته مدى عدم تسوية هذا التهكم وكيف تجاهله موقف (هجل) تجاهلاً سويّاً تماماً .

ان التهكم (وعندما استعمل في هذا التحليل كله لفظ تهكم أو متهكم فانه في وسعي ان أقول : الفكر الابداعي أو الشيء الابداعي : ذلك ان التعبيرين يدلان في الحق على واقع واحد ، ولكن التعبير الأول يحيلنا بالحري على العماد الذي منحته الحركة لذاتها ، والآخر على الاسم الذي فرضه هجل عليها) ، ان التهكم كان يعرف عندئذ على ان تلك القدرة التي

ليس لأي شيء آخر حياها قوام ، والتي تأتي على كل وجود ، ولكنها ، بالمقابل ، كانت تبدو قادرة على تحقيق أي شيء . وهي ان كانت تستدعي وجود شيء من الأشياء فانها لم تكن تنسى انها كانت تحتفظ بالقدرة على افنائه وكانت تفكر في ذاك الافناء في لحظة استدعائها اياه للوجود بالذات . ولئن كانت تطرح شيئاً ما ، فانها كانت تعرف حق المعرفة انها تظل حرة تماماً في ان ترفعه ، وتعرف ذلك في عين اللحظة التي كانت تطرحه فيها . فالتحكم كان إذن يعي حق الوعي ، بوجه عام ، انه يملك تلك القدرة على العقد والحل ، وكان يسود كذلك الفكرة الظاهرة على قدر سواء ، وهو يهدم احدهما بالآخرى . كان يهدم الظاهرة اذيين انها لم تكن تقابل الفكرة ، ويهدم الفكرة اذيين انها لم تكن تقابل الظاهرة : ولم يكن في وسع المرء ان يجد ما يقوله لطرفي البرهان ، ما دامت الفكرة والظاهرة لا توجدان كلتاهما إلا من حيث علاقتهما المتبادلة . وفي خلال هذه التمارين كلها ، ظل التهكم يتابع مسيرة حياته اللامبالية ذلك ان للموضوع قدراً كافياً من الثروات الانسانية يمكنه من مجابهة ذلك كله . أو ليس السلوك على منوال مغاير يعني محاولة مضاهاة الله ، ومن ذا الذي يوجد إذن بالنسبة لله ؟

ولكن للواقع (أعني الواقع التاريخي) طراز ان من الاتصال بعلاقة مع الموضوع : الأول في حلة معطى لا يمكن

إبعاده ، والآخر في حلة واجب ينبغي النهوض به . وينجم عن حادث ان الموقف التهكمي موقف انتقادي بالدرجة الأولى ان يتسم سوء التفاهم الذي يقيمه التهكم مع الواقع بانه جلي الجلاء كله ، وان فيلسوف التهكم (شغل) مفكر انتقادي تماماً مثل شاعره (تياك) . وإليك كيف انتهى الأمر إلى عصرنا ، بعد تأويل اليوم السابع على أشكال مختلفة ، ولم يبق ذاك اليوم خلال التأثير التاريخي يوم راحة واستجمام ، بل فترة انتقاد . بيد ان الانتقاد ينفي التعاطف الشامل ، ويبلغ من ذلك اننا ننتهي إلى وجهة نظر ملأى بالنفاق ، لا يبقى بالنسبة إليها معطى موضوعي مثلما لا تبقى براءة في نظر شرطة شديدة الارتياب . ولم يبق الباحثون يقتصرون على انتقاد القدامى المدرسين ، ولا انتقاد المعرفة كما فعل (كانت) Kant ، وإنما آل الأمر حتى إلى انتقاد الواقع ذاته . أجل انه في الواقع كثيراً من العناصر التي يمكن إخضاعها للنقد مستساغ وقد يتفق ان يتغلب فيها الشرذات لحظة (في صورة كسل وثقالة كما حددها فيخته Fichte) وان قوة عطالته قد تستلزم تقديماً ضرورياً . وبعبارة أخرى ، قد يتفق ان يوجد في هذا العالم أجزاء سيئة ينبغي بترها (وبوجه الدقة لان الشر ليس له صفة الواقعية) بدون ان يحسب أحد انه مرغم على إخضاع الكون بأسره لانتقاد جذري . أما أن يكون (شغل) قد جاء بمثل هذا الانتقاد فان

ذلك أمر لا يحتاج إلى بيان ، وسيوافقني القراء بيسر على مثل هذا الأمر بالاضافة إلى (تياك) إذا لم يشأ أحدهم ان يحمل على ان ينكر ، (بخلاف كل بداهة) ، إلى أية درجة يعكس مسرحه روح الجدال هذه تجاه العالم المخلوق . وهذا أمر جد أساسي حتى ان أحداً لم يستطع فهمه باستثناء من تدرب على روح الجدال ، ولم تتح له هذه الصفة ان يشتهر ، من جهة أخرى ، لدى الجمهور الغفير حتى يحظى بالنجاح الذي كانت عبقرية أثره تستحقه .

ومن الجلي اني حين تحدثت عن ان الواقع يظهر أول ما يظهر في صورة معطى ، ان ذلك يعني علاقة الفرد بماضٍ . وهذا الماضي يزعم عندئذ ان له قيمة في نظر الفرد ، وان على هذا الفرد ألا يهمله ، وبالحرى ألا يتجاهله تجاهلاً تاماً . وبالمقابل ، فان التهكم لا يعترف بأي ماضٍ حقيقي . وذلك ينتج عن ان يعي أصوله الميتافيزيائية . ألم يستعص عن (الأنا) السرمدية بـ (أنا)ها الزمنية ؟ ومنذئذ ، ما دامت (الأنا) السرمدية بدون ماضٍ ، فان (الأنا) الزمنية لن يكون لها أيضاً ماضٍ . ولكن التهكم إذا مضى بحسن نية حتى إلى العزم على الاعتراف بماضٍ ، فان على هذا الماضي من ناحيته أن يضع فيه من ذاته ما يكفي ليحتفظ التهكم حياله بحرية حركته التامة وان يقدر على تتبع مجرى تمارينه بسلام . وعلى هذا فان التهكم يخص

بأفضل عطفه هذا الجانب الاسطوري من التاريخ ، جانب
الخرافات أو المغامرات .

وبالمقابل يحرص التهكم كل الحرص على التغاضي عن
التاريخ بالمعنى الصحيح ، التاريخ الذي يمارس فيه الفرد
الحقيقي حريته الايجابية لأنه يستمد مقدماته من وسط هذا
الواقع المشخص . وان التهكم ليسلك بهذا الصدد سلوك
(هرقل) تجاه العملاق (انته) الذي ظل عاجزاً عن التغلب
عليه ما بقي العملاق بتماس الأرض : ولذا رفع (هرقل)
(انته) عن الأرض ، وتغلب عليه بفضل هذه الخطة . وان
التهكم يتصرف على هذا النحو تجاه الواقع التاريخي : ففي
حركة خاطفة يرتفع التاريخ عن الواقع ليغدو شعراً ، أو
أسطورة ، أو خرافة ، وعندئذ يسترجع التهكم حرية حركته
كاملة . وها هو إذن في سبيله إلى ان ينبج ، مرة أخرى ، وكما
يشاء ، الاكوان الخيالية ليرتفع فيها التهكم : وان التاريخ
اليوناني ، وتاريخ العصر الوسيط ، هما اللذان يرضيان التهكم
ويعثان سروره بصورة خاصة . والتهكم لا يتهالك على إعادة
تراكيب موضوعية ، لان ما يتذكره ليس سوى شعر وحقيقة .
وعلى هذا النحو غرس التهكم خيمته في (يونان) ، تحت سماء
(اتيك) الجميلة ، وتاه بتذوق متعة الهيلينية المتسقة : وبلغ من
ازدهاره ثمة ان وجد نفسه في بيئته الطبيعية . ولكنه ما ان شعر

ببعض السأم حتى تلاشى بلمحة بصر الزخرف الرشيق الذي استدعاه نزوانه العابث . لم يكن للهيلنية في الحق أية قيمة ذاتية في نظر التهكم باعتبارها مرحلة من مراحل التاريخ العام ، ولكن ذلك لم يمنع التهكم من الاعتراف بان للهيلنية قيمة من نوع آخر ، بل قيمة مطلقة ، إذا ما شاء . وعلى هذا لم يمنعه ذلك من مغادرة الهيلنية للانغماس في الأسلوب العميق للعصر الوسيط ، راصداً حفيف الأشجار الخفي ، ومقيماً عشه في ذري الأغصان ، إذا لم يرجح الاختفاء في قاع الكهوف المظلمة باحثاً بالاجمال دوماً عن واقعه الخاص في عصر وسيط مناسب ، بين الفرسان وشعراء الزجل والاونس النبيلات اللواتي يتهادين إلى جانب خطيبهن وصقر صيد يقف على قبضة اليد اليمنى . ولكن ما ان يصاب بلاط الحب هذا بخسارة عدم الاهتمام به حتى يتقهقر إلى ما لانهاية العصر الوسيط كله وتنتهي حواشيه الآخذة بتلاش مطرد بالاختفاء في قاع المعرفة . ذلك ان العصر الوسيط ذاته لم يكن يمثل أيضاً في نظر التهكم مرحلة ذات قيمة ذاتية من مراحل التاريخ العام ، بل كان يمنح قيمته كلها ، قيمة مطلقة ، من رغبة التهكم بذلك .

وكان الأمر على هذا المنوال في مجالات التأمل النظري كلها . ولذا رقى هذا الدين أوزال خلال حقبة من الزمن لدرجة المطلق ، ولكن ذلك لم يمنع التهكم من ان يعي ان السبب في

اعتبار دين من الأديان مطلقاً إنما يرجع كله إلى قراره التعسفي ، وهذا كل ما في الأمر : بدليل ان الدين يتبدل في الحقبة التالية تبدل الهوى . وعلى هذا النحو نجد التهكم يعلم تارة ، كما يعلم (ناتان الحكيم) Nathan Le Sage ان للاديان كلها قيمة واحدة ، وان المسيحية قد تكون أسوأ الديانات ، وتارة يتوخى تغيير رأيه واعتبار ان المسيحية ذاتها هي شخص (المسيح) . وقد ظل الأسلوب هو هو فيما يتصل بالمعرفة . ولم يكف التهكم عن انتقاد كل وجهة نظر علمية وإدانتها . ولكن بينما كان التهكم يتسكع مضيعاً وقته بالجولان أمام المحكمة ، كان يدع إلى غيره مهمة البحث والتنقيب . ولم يكف التهكم بذلك عن الوقوف فوق موضوع المناقشات ، وكان ذلك بالبداهة موقفاً مفهوماً لأن الواقع إذا أصغينا إليه لا يبدأ إلا به . لقد انبثق التهكم ، في الحق ، من المسألة الميتافيزيائية المتصلة بعلاقة الكون بالواقع . ولكن نجم عن ان الواقع الميتافيزيائي يوجد خارج الزمان ان بات من المتعذر اعتبار ان الواقع الذي يعنى به التهكم واقع يحبس الزمان .

لقد ثار (هجل) على هذا الطراز من الحكم والادانة (المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٦ ص ٤٦٥) ، ولا سيما فيما يتصل بـ (فردريك شغل) . ولا يسعنا المبالغة بالاعتراف بأهمية الخدمات الجلى التي قدمها (هجل) بصدد فهم الماضي

التاريخي . انه لم يرد الماضي ، بل تصوره ، لم يرفض وجهات
نظر علمية أخرى ، بل تجاوزها . ولذا نجد (هجل) قد وضع
حداً لهذه المسألة الخالدة ، مسألة أن نعرف ، ما دام التاريخ
العام يوشك على البدء ، هل سيكون من الصحيح عند
« الدقة » الرابعة أم ان من الأفضل التريث وانتظار « الدقة »
الخامسة . وكذلك لئن وجدنا هذا المفكر الهجلي أوداك يندفع
بحماسة للوثبة التاريخية - العالمية السامية اندفاعاً يحرمه من
القدرة على التوقف في مجراه النزواني إلا بعد ان يقع بين ذراعي
الشیطان ، فان مرد ذلك لا يمكن ان نعزوه إلى (هجل) .
ولئن أمكن بالبداية دفع الأشياء بصدد التأمل إلى أبعد مما
فعل (هجل) ، فاننا لن نجد لدى أولئك الذين يمتلكون
مفهوم دلالة الواقع أحداً بلغ منه الجحود ان أراد الاسراع
بالانفصال عنه ونسيان ما يدين به له ، حتى في النقاط التي
يختلف فيها معه . وإذا وجب الاعتراف بالحقيقة ، أي ان
التهكم يميز سلوكاً مشبوهاً ، فمن الممكن تسويغه على الأقل
بقولنا ان التهكم يعرف حق المعرفة ان الظاهرة لا تطابق
الكون . والفكرة ، بالمقابل ، هي مشخصة : ولذا يجدر نقلها
إلى مستوى الواقع المشخص ، بيد ان صيرورة الفكرة على هذا
النحو هي بوجه الدقة الواقع التاريخي ، وفي هذا الواقع
التاريخي تمنح كل حلقة خاصة قيمتها عندئذ من المرحلة .

ولكن التهكم لا يعترف بهذه القيمة النسبية . وعنده ان الواقع التاريخي يرتدي قيمة مطلقة تارة ، وليست له أية قيمة في تارة أخرى : ذلك ان التهكم قد حمل نفسه على الاضطلاع كذلك بمهمة جليلة هي مهمة بلوغ أقصى الحقيقة .

غير ان الواقع يبدو أيضاً للفرد في صورة واجب ينبغي إنجازه . وهنا نتوقع ان نشاهد التهكم يتجلى من زاوية مفيدة أعظم الفائدة . بحسب المرء حين يرى ان التهكم قد رفض كل واقع معطى ان لديه شيئاً صالحاً يستعوض به عنه . ولكن الأمر خلاف ذلك دوماً . فإذا كان هذا الموقف يتيح للتهكم الافادة من الوسائل التي تمكنه من تجاوز الواقع التاريخي بالرقى إلى السحاب ، فان لهذا النصر ثمنه المائل في ان التهكم ذاته يظل في الهواء . ان واقعه يتجلى إذن باعتباره إمكاناً محضاً . وبينما يترتب على الفرد الفاعل إذا أراد النهوض بواجبه ، أي ببناء الواقع وبحل المشكلات التي يستطيع طرحها ، يترتب عليه أن يشعر بانخراطه في عمل جمعي كبير ، وان يعي جدية مسؤوليته ، ويكتشف كل نتيجة عقلية ويحترمها ، فان التهكم ، على العكس ، قد تحرر من جميع هذه العوائق . التهكم ، إذا شاء ، يشعر بالقدرة على طرح ضروب بدء مطلقة : وليس في وسع أي ماضٍ ان يكبله . ومثلما يتمتع التهكم على الصعيد النظري بفرحة الانتقادي بسلام ضمن

حرية لا محدودة ، فانه يتمتع على الصعيد السياسي أيضا بحرية الهية مماثلة لا تعرف أي لجام يلجمها ، ولا أي عائق ، بل انه ينغمس في لعبته الغريبة الجmach انغماس (لافياتان) الذي يرتع طليقاً في المحيط .

للتهمك إذن حرية مطلقة . انه حر من مشاغل الواقع ، وهو حر أيضاً من افراح الواقع وأتراحه . ذلك انه ينجم عن عدم اعتراف التهمك بأية قيمة أرفع من قيمته انه لا يوجد في الشروط المطلوبة للحصول على السعادة ، والسعادة هي هذه المنحة التي بها يستجيب كائن أعلى لأمنيات كائن أدنى . وهذه الحرية هي كل ما يتمناه التهمك . ولذا فان التهمك يقظ على الدوام ليتحاشى - وهذا ما ينحشاه أكثر ما ينحشى - ان يسيطر عليه هذا الاحساس أو ذاك . ولذا فان هذا النوع من الحرية هو الشرط الواجب للنفاذ إلى مستوى الوجود الشعري ، وذاكم هو بوجه الدقة هو المطلب الرئيسي للتهمك ، ان يطمح إلى أن يحيا حياة شاعرية .

بيد ان التهمك يدل بهذا الوجود الشعري على شيء يخالف جداً ، وأبعد جداً ، مما يمكن ان يتصوره بهذه الكلمة كل انسان عاقل يعير بعض التقدير لقيمة الانسان ولحدس ما ينطوي عليه كل انسان من أصالة بذاته . ان التهمك لا يرمي ، على هذا المنوال ، إلى الاعراب عن الجذ الفني الذي يسعف

الالهى ، داخل اعتكاف صامت ، مادام الانسان الذي أدرك صوت أصالته العميقة واكتشف قانون حركاته العفوية يستطيع منذئذ وضعها تحت تصرف الفرد الاختباري ليحقق على أفضل نحو من الانسجام فرديته الكاملة باعتبارها صورة تشكيلية أعيدت إلى غمطها الرئيسي . ان التهمك أنأى عن أن يرى في ذاك الهدف الذي يطمح لبلوغه انسان مسيحي تقي عندما ينتهي إلى اعتبار ان الحياة تدريب وتربية لا تستهدف أن تجعل منه كائناً مغايراً كل المغايرة ما كان في المنطلق ^(١) ، بل ان ينمى بذور الحياة التي غرسها الله في كيانه ، وعلى هذا النحو يعي المسيحي واقعه بازاء الله ، وفي مثل هذا التصور يهب المسيحي ، ان صح التعبير ، لرفد الله ، ويصبح مساعداً له في إنجاز عمل صالح ، وان الله نفسه كان قد بدأ . ولم يكتف التهمك ، وهو يرفض هذا الطراز من النظر ، بالاحتجاج على كل هذا الصغار المؤسف الذي كان يواجه به الناس من حوله ، على هذه الانسانية الرتيبة التي ، بالرغم من جميع ضروب البؤس ، لا يزال العالم موائماً

(١) نرى هنا ان اله المسيحيين لا يملك تلك القدرة المطلقة السلبية التي يملكها اله المسلمين . وفي وسع اله المسلمين ان يجعل انساناً (. . . / . . .) بحجم جبل كبير ، وان يجعل برغوثاً بمثل ضخامة فيل ، او على العكس ان يجعل الجبل صغيراً بحجم انسان ، والفيل بمثل حجم برغوث . ولذا فان كل شيء يمكن ان يكون على غير ما هو عليه بدون ان ينجم عن ذلك ان يكون العالم أسوأ . (لقد وضع كيركغارد هذه الجملة بين معترضتين ضمن النص الذي كتبه ولم يضعها في الهامش) .

إلى حد كبير ، ولكن التهمك كان يطالب بالمزيد .

والحق ان اصفاء الصفة الشاعرية على الذات شيء ،
والاستسلام لاضفاء الآخرين تلك الصفة على الذات شيء
آخر . وعلى هذا النحو نجد ان المسيحي يستسلم لاضفاء
الشاعرية عليه من خارجه ، بل وان في وسعنا ان نقول ونحن
نعتقد وجهة النظر الثانية ان المسيحي الساذج يحيا حياة أكثر
شاعرية بما لا نهاية له من عدد كبير من الأشخاص المشهورين .
ولكن من يضفي بذاته الشاعرية على ذاته ، على طريقة
الاغريق ، يعترف في الوقت ذاته بان عليه واجبا . ولذا
لا مناص له من ان يعي الأمر العقوي الجاثم في ذاته : ان
العفوية ترسم في الواقع الحدود التي يضفي شاعريته ضمنها ،
والتي ضمنها يكون هو حرّ حرية شاعرية . وعلى هذا المنوال
تعني الفردية هدفها وهو هدف مطلق . وما وظيفتها بوجه الدقة
إلا ان تتطلع لهذا الهدف ، تتطلع لبلوغه ، وللاستمتاع عن
طريق هذا الانجاز ، وبسبيله . وهذا يعني ان وظيفتها هي ان
يصبح ما في ذاته لذاته .

غير ان الانسان المقياس إذا لم يمتلك ما هو في ذاته وإنما بدا
لنا قادراً على ان يصبح أي شيء كان ، إنما يتيح للمتهم ان يجد
نفسه تحت ذاك الشعار . ولكن ذلك لا يرجع إلى حادث انه مجرد
نتاج وسط لأنه لا يكف ، على العكس ، عن التحليق فوق

وسطه كله : بل انه المتهم يرى نفسه محروماً من امتلاك أدنى « ما هو في ذاته » ، لكي يستطيع النهوض بوجود شاعري حقاً ، ولكي يستطيع ، بصورة نافعة ، ان يحقق ذاته بذاته على الصعيد الشاعري . ولذا فان التهمك يهبط من تلقاء ذاته إلى دون ما يحاربه أشد حرب ، لان المتهم ينتهي إذ ذاك إلى الاتصاف ببعض شبه مع التأثير الحقيقي ، وبفارق أنه يظل يملك ميزة الحرية السلبية ، أي القدرة على خلق تصور شاعري فوق وجوده الخاص . وعلى هذا فان التهمك ينتهي في أغلب الأحيان إلى العدم ، لأن هذا المبدأ الذي لا ينطبق على الله يستمر ذا قيمة في صدد الانسان ، مادام كل صادر عن العدم آيل إليه . ولذا نجد معنى « لا يساوي شيئاً » يمثل في نظر المدرسة الابداعية الشخص الأعظم شاعرية . اما المقصد الذي يعتنقه المسيحيون - في أغلب الأحيان ، ولا سيما في أوقات الاضطرابات فهو مقصد ان يبدو المرء « مجنوناً في نظر الناس » ، فان المتهم يحققه على طريقته : وبفارق ان الامر لا يمثل في نظر المتهم أمر الحصول على وسام الشهيد ، بل ان يتذوق اروع متعة شاعرية .

ومن الواضح ان هذه الحرية الشاعرية الشهيرة غير المحدودة التي ظهرت سلفاً في هذه الموهبة السلبية تتجلى ايضاً تجلياً ايجابياً في ان الفرد اعتاد ان يحرر في شكل امكانات ،

بسلسلة التحديدات المتنوعة كافة ، وان منحها وجوداً شاعرياً قبل ان تغرق في العدم . ان النفس التي تستسلم للتهكم تشبه تلك التي تجتاز العالم في مذهب (فيثاغورس) Pythagore : انها دوماً على سفر ، ولكنها لم تبق بحاجة لوقت طويل بمثل ذاك الطول . ومن المعلوم انها ، بقدر عودتها الى التجسد في الزمان ، تشارك في ميزة تذوق تنوع التحديدات المتعاقبة ، وانا اعرف اكثر من متهمكم لم يستطع بلوغ طمأنينة النيرفانا الا بعد ان مرّ بعدد كبير من الامور المفروضة قدراً ، مثل الديك الذي روى لنا (لوسيان) Lucien قصته ، وقد كان هذا الديك في وقت سابق (فيثاغورس) بالذات ، ثم (اسبازيا) Aspasia وهي حسناء (ميله) Milet المبهمة ، ثم (اقراطيس) Cratès الكلبي ، ثم اصبح على التعاقب ملكاً ، وغمراً ، ومرزباناً فارسياً ، وحصاناً ، وغراباً ، وضيفدعاً ، والف شيء آخر مما يطول تعداده ، وأخيراً اصبح ديكاً ، وقد مرّ بهذا الدور مرات شتى لأنه وجد فيه أكبر متعة .

وعلى هذا النحو تكون الأشياء كلها جائزة في نظر المتهمكم . الهنا في السماء : انه ينظم كل شيء كما يشاء ؛ والمتهمكم في الأرض ، لا يخضع الا لقانون ما يريد . وبالرغم من ذلك فاننا لا نستطيع ان نأخذ على المتهمكم الصعوبة التي يشعر بها ليتحلى بشكل محدد ، لان الاختيار يغدو شاقاً عسيراً

عندما يجد المرء تحت تصرفه حقل امكانات من ذاك النوع . ولذا
يعتزم المتهم ، في نهاية الامر ، ان يدع القدر أو الصدفة
يقرران في شأن اي تغيير . ومثلما يقترح الاطفال على من سيتولى
الدفع ، يلعب المتهم باصابعه وهو يحسب قائلاً : أمير فاتن ،
أو شحاذ متسول ، الخ . وليس لجميع هذه التجسّدات في
نظره سوى قيمة امكانات محضة ، انه يستطيع تحوير السلم بمثل
سرعة الاطفال في لعبهم . وبالمقابل ، ان ما يستغرق من
المتهم وقتاً هو الاهتمام الذي ينفقه من اجل ان يرتدي الثوب
الموائم ، بحسب الدور الشعري الذي يتطلع اليه نزوانه .
ولا يعوز المتهم الاستعداد والتأهب بهذا الصدد ، بل انه ،
فوق ذلك ، يملك خزانة ثياب فيها من التنوع ما يكفي ليتيح له
تنكراً من الطراز الأول . انه أحياناً يخطر في مشيته وهو يتكلف
زهو شريف روماني ملتفع بثوبه الفاقع ، ويجلس أحياناً على
كرسي عاجي متمثلاً وقار شيخ من مجلس الشيوخ الرومان ،
ويتواضع تارة في اهاب حاج فقير حزين ،
ويستريح تارة أخرى واضعاً ساقاً فوق ساق فعل أحد
الباشاوات وسط حريمه ، وتراه تارة ثالثة يحوم بحرية وخفة هنا
وهناك رفرفة عصفور صغير ، اوزجال عاشق . ذاك ما يشغل
بال المتهم عندما يعلن ان عليه ان يحيا حياة شاعرية ، وهذا
هو المستوى الذي يبلغه جهده ، حتى يضيف على نفسه الشاعرية
بنفسه .

ولكن لنرجع الى ملاحظتنا السابقة : ان الأمرين
يختلفان ، أمران يدع المرء الآخرين يصفون الشاعرية عليه أو
ان يضيفها هو على نفسه . لان من يدع الآخرين يصفون
الشاعرية عليه يدخل بذلك في علاقة معطاة من التحديدات
التي ينبغي عليه التقيد بها : واذن لم يبق ذلك نهاية خالية من
المعنى ، ما دام هذا المعنى يُعرب عنه بوجه الدقة في تلك
العلاقة . ولكن هذه العلاقة لم تبق في نظر المتهكم إلا صكاً
ملحفاً بوصية لا قيمة له أبداً ، وما دام لا يشعر
هو بأي استعداد للتقيد بمطالب وسطه ، لذا وجب
على هذا الوسط أن ينحني هو ليتكيف معه :
وهذا يعني ان المتهكم لا يكتفي باختفاء الشاعرية على ذاته بل
يضيفها أيضاً على عالمه . ان المتهكم يعتز ببقائه سجين ذاته ،
وهو يستعرض الناس امامه مثلاً استعرض (آدم)
العجماوات ، وهو مثله لا يجد بينهم أحداً جديراً بصحبته .
ولذا فانه لم يكف عن الاصطدام بالواقع الذي ينتمي اليه .
وعلى هذا نجده يعلق أهمية كبرى على قدرته على تعليق المبدأ
الذي يقوم هذا الواقع ، وهذا ما يعطيه بنيته واستقراره ، أي
الاخلاق والتخلق .

هنا نبلغ النقطة التي كانت تهدف اليها الحملة الهجلية
أكثر ما تهدف : ذلك ان كل ما يمكن ان يصادفه المتهكم في
الواقع المعطى ليس له في نظره إلا قيمة شاعرية ، لان وجوده كله

يجري على المستوى الشعري . ولكن الواقع المعطى ان كان يفقد على هذا المنوال قيمته في نظر المتهم ، فان مرد ذلك لا ينشأ عن انه واقع تم تجاوزه ووجب عليه ان يفسح المجال أمام واقع آخر أكثر اصالة . بل لأن المتهم يجسد (انا) اساسية لا يوجد بالنسبة اليها واقع موثم . واذاك نفهم فهما أفضل كيف ينتج عن ذلك ان المتهم يضع نفسه فوق الاخلاقي والتخلق - وهذا مزعم لم يخش (صولجر) نفسه ان يثور عليه بلفت الانتباه الى حادث انه لم يفهم التهم على هذا النحو . ومن ناحية أخرى ، ليس بصحيح الصحة كلها ان المتهم يضع نفسه فوق الاخلاقي والتخلق : الحقيقة هي انه يحيا حياة مجردة باسراف ، ميتافيزائية أو جمالية باسراف ، ولذا لا يقدر على بلوغ صخرة الاخلاقي أو التخلق . وهو يرجع الحياة إلى الا تكون سوى تصور درامي وان ما يعنيه انما هو تعقد هذه الدراما العاطفي . وهو ينوي عدم مبارحة موقف الناظر ، وحتى في التمثيلات التي يكون ممثلاً فيها . ويكفي لبلوغه ذلك ان يفتت (انا) الى ما لا نهاية ، وان يحيلها الى ضباب ميتافيزائي أو جمالي ؛ وسيكون في مكنته منذئذٍ ، وهو يكتف ذاتة بين حين وآخر في صورة انانية ومحددة قدر المستطاع ، ان يتحرر من ذلك عندما يجد ان التحرر يوائمه ، ويوسع الى مدى جد كبير مجال تحليقه ، حتى يتمكن بذلك من الاحاطة بالكون كله . وعلى

هذا النحو سثير تضحية الفضيلة حماسته ولكنها ستكون حماسة
ناظر في مسرح : وان المتهم ، من جهة أخرى ، ناقد عسير
يعرف حق المعرفة النقطة التي بدء منها تفقد هذه الفضيلة نكهتها
واصالتها . وقد يتفق له ان يندم ، ولكن ندمه ينتمي الى الجمالي
لا الى الأخلاقي . ذلك اننا نجد في لحظة ندمه يخلق جمالياً فوق
هذا الندم ليشعر بقيمته الجمالية ، وليعرف هل يكون حقاً
الجواب الموائم على لسان شخص شاعري .

ولكن ، بالرغم من انه يستخدم اكبر حرية شاعرية
مممكة ليضفي بنفسه الشاعرية على نفسه وعلى وسطه ، وبينما
يحيا حياة افتراضية وذاتية تماماً ، فانه ، وهو المتهم ، لا يتأخر
عن تبديد كل استمرار في كيانه . انه يضع تماماً وهو يحدّد
نفسه : ان حياته ليست سوى سلسلة من التحديدات الغريبة
بعضها عن بعض . وانا أوافق على ان تحديد هذه الحالات
النفسية المتعاقبة قد يقابل تجربة أصيلة وان يكون من الممكن ألا
يوجد أي وجود مطلق بما ينفي جذرياً امكان الاحتمالات
المباينة . ولكن التحديد في حال الوجود السليم ليس سوى
انجاز الوجود انجازاً أخيراً ، وهو ينطوي في ضمنه على وحدة
بنية وعمله . ان المسيحي الجدي هو اول من يعرف ان ثمة
لحظات متميزة يشعر فيها شعوراً اعمق وأشد مما هو مألوف بواقع
الحياة المسيحية : ولكن شعوره بهذا التحديد إذا ما كفّ فانه

لا ينحدر به إلى منزلة الوثني . بل الأمر على العكس ، كلما كانت حياته أكثر جدية ازدادت قدرته على التمسك بتوجيه روحه فوق هذه التحديدات العارضة ، وهو لا يرى في ظهورها إلا فرصة للتواضع ، ومن ثم ، للتحرر الروحي . ولما كان المتهم محروماً من كل استمرار ، فإن تحديداته المتعاقبة سينفصل بعضها عن بعض : ونحن نجد أمامنا الهاتارة ، وتارة نجد ذرة رمل . ولذا فإن تحديداته تظل جائزة جواز إعادة تقمص (براهما) . وان المتهم الذي يعتبر نفسه منعقداً يقع من جراء ذلك تحت نير القانون الرهيب للتهكم الكوني ، ان عليه ان ينجز سخرية في أفطع عبودية . بيد ان المتهم شاعر ، وهو سيعرف كيف يمّوه الأشياء تمويهاً كافياً حتى لا تظهر بمظهر كرة بين يدي التهكم الكوني العابثة . وبما انه يعرف كيف يضيفي الشاعرية على كل شيء ، فانه سيضيفيها إذن على التحديدات . وما دام يحتاج لكي يكون حراً إلى الحفاظ بوجه الدقة على يده العليا فوق التحديدات ، فانه سيتدبر الأمر لكي يمحي كل تحديد أمام التحديد الذي يليه . وإذا اتفق بين الفينة والفينة ان جرى هذا التفريق في يأس بارز على نحو يرغمه على إدراك ان ذلك لا يجري على الوجه الأفضل تماماً ، فانه سينسحب وهو يقتضي الشاعرية مرة أخرى . انه يحلم بأنه هو الذي يدعو الكون إلى التحديد ، وانه يستمر على إضفاء الصفة

الشاعرية على هذا المنوال إلى ان يبلغ درجة الشلل الروحي مما يضطره إلى ان يدع الكلام للحلم .

لنخلص إذن إلى القول بأن تحديد حالته النفسية لا يتحلى بواقعية تميزها عن سواها في نظر المتهم . وانه لا يفسح المجال لها إلا نادراً لتجلى في صورة تباين بالتضاد . ولذا ترانا نجده يعرب عن متاعبه بالمجهول المتميز عن المزاح إعرابه عن فرحه بتنهيدات الأسى . أترأه يحج إلى دير من الأديرة ، انه يقتنم ذلك كي يقوم بزيارة (فنسبرغ) Vénusberg زيارة عابرة : ولكنه إذا ذهب ثمة وقف ليصلي في الدير . وعلى هذا فان جهة التهكم من الناحية الاستمولوجية ينحل إلى حالات نفسية . وهذا ما عابه (هجل) بالدرجة الأولى على (تياك) وما يستخلص كذلك من مراسلاته مع (صولجر) . لم يستطع قبول ان يظهر المتهم تارة في صورة كائن تقليدي ، وكائن جذلي ، وكائن وثوقي ، وكائن ربيبي ، وتارة كائن في صورة (يعقوب بوم) Jacob Böhme ، وتارة في خط التفكير اليوناني : ان ذلك كله تحديدات محضة ! ومن الجلي ان ضرورة ان يبقى بعض رباط للوصل بين هذه المتناقضات كافة ، وان تبقى وحدة تتسق فيها أقبح ضروب تنافر هذه التحديدات ، إنما يجعلان المتهم ذاته غير قادر على التأخر عن ارضاء هذه الحاجة للوحدة . ولكن الاستمرار الوحيد الذي يملكه المتهم ليس سوى الملل .

فالمثل ، هذه السرمدية البريئة من الفحوى ، هذه الغبطة الخالية من الفرح ، هذا العمق السطحي ، هذه التخمة لدى المسبغ ، ان المثل يؤلف بوجه الدقة بالاضافة لشعور شخصي ، يؤلف تلك الوحدة السلبية التي تمحي فيها التناقضات . ولا ريب في أن أحداً لن يعترض على تكذيبي إذا أعلنت أن (فرنسه) و (المانيه) تملكان في هذه اللحظة بالذات مجموعة من أمثال أولئك المتهمكين بحيث لن تحتاجا بعد الآن إلى من يطلعهما على أسرار (المثل) برعاية أحد اللوردات الانكليز ممن يكون عضواً متجولاً في أحد أندية - السأم . وان هذا العضو أو ذاك من عصابة « المانية - الفتاة » أو « فرنسة - الفتاة » سيكون قد مات من السأم منذ زمن طويل لو لم تلتفت الحكومة المعنية لفته أبوية لمنعه في الوقت المناسب بغية تحديد إطار لتفكيره . وإذا أردنا ان نرى الآن بأعيننا مثلاً رائعاً عن أحد هؤلاء المتهمكين الذين تقود ازدواجية حياتهم إلى فقدان هذه الحياة ، فما علينا إلا ان نذكر مثل (ازا لوك) ^(١) — Asa Loke .

(١) إن لوك، أو لوكي Loki شخص شيطاني في الشعر الشمالي القديم. وقد أدخل (أودين) Odin ذلك المتأمر في عداد (اريس) Ases على انه يملك القدرة على ان يتحول إلى امرأة ، وإلى نحلة ، وإلى برغوت ، الخ . . وان يتقل كما يشاء . انه (بروته) في الأسطورة الاودينية . انظر (أ . موك) E. Mogk ، لوكي : في « معجم (هوب) لعلم الآثار الجرمانية » .

وعلى الصعيد العملي بين الامكان والواقع ، والواقع والامكان ، - وللبرهان على ذلك بتوسع أكبر يتناول تاريخ تطور التهكم ، سننظر الآن عن كُتب أعظم إلى أشهر ممثليه .
« مفهوم التهكم - القسم الثاني -
التهكم في نظر فيخته » .

ب - فلسفة مراحل الوجود

١ - المرحلة الجمالية

١ - الرغبة ، أساس الحياة الجمالية

من أين يستطيع (دون جوان) أن يمنح مبدأ اغرائه في هذه الحالة ؟ من قوة هواه ، من طاقة الرغبة الشهوية . ان ما يبتغى لدى كل امرأة هو الأنوثة الكاملة ، وان فوزه ليرجع إلى هذا الاضفاء المثالي الذي يسقطه على ضحيته . ذلك ان نار هذا الهوى الفخم تنير موضوع الرغبة وتجسمه فيحمر بتماسه ويشع اشعاع جمال أعلى . ولئن كانت حماسة هذا الغاوي تزين سلفاً الخصال المغربية لأول انسان يشاهده في طريقه فكيف لا يمنح نوراً أقصى كل فتاة تدخل في علاقة رئيسية وایاه ! ولذا فاننا نجد ان جميع الفوارق الفردية تتلاشى أمام هذا الحادث الرئيسي ، حادث ان يكون ذاك الانسان امرأة . انه يعيد الصبا للعجائز بإرجاعهن إلى مبدأ جنسهن ، وسرعان ما يجعل المراهقات

تفتحن : كل ما هو أنوثة يمثل قضيته . . .

ولا يقتصر (دون جوان) على ان يحظى بالنجاح عند الفتيات ، بل انه يجعلهن أيضاً سعيدات وهو يسبب شقاءهن : أمر غريب ، ومع ذلك فهذا ما يرغب به ، وان كل فتاة لا تمنى ان تغدو عيسة بمقابل ان تكون سعيدة ولومرة واحدة مع (دون جوان) ، ستكون فتاة بائسة حقاً . بيد انني إذا تابرت على اعتباره غاوياً فأنا لا أعني بذلك ان اعتبره انساناً مناقضاً يبحث عن الفوز بأية حيلة : ولئن كان (دون جوان) يحقق مآربه ، فانه لا ينجح إلا بسبب عبقريته الشهوية التي كأنها تتجسد فيه . التفكير التأملي ليس من نصيبه ، وان حياته زبد كزبد الشمبانيا التي تعيد إليه قوته ، وهو يطرب بالحن الموسيقى التي ترافق طعامه بمرح ، ويطير من نجاح إلى نجاح . وهو لا يحتاج إلى خطة ، ولا إلى تصميم ، ولا إلى وقت ، لأنه دوماً شاكي السلاح . وان قوته الحيوية في حالة اشتداد دائم ، ورغبته حاضرة دوماً ، وهو لا يكون في وضعه الطبيعي إلا عندما يشعر بالرغبة . وإذا ما فوجيء وهو يتناول طعامه ويدير كأسه بين يديه فعل اله ، تجده ينهض في طرفة عين وهو متأهب للهجوم . وعندما يوقظه (لبورلو) Leporello في منتصف الليل ، ينهض على الفور وهو واثق دوماً من انتصاره . ولكن الكلام يعجز عن الاعراب عن هذه القوة ، وإنما تستطيع

الموسيقى وحدها ان تعطينا فكرة عنها ، لأن التأمل والتفكير
لا يقدران على الاحاطة بها . . .

وعلى هذا النحولن أحاول أن أقدم لك البطل ، بل
اقتصر على ان أحدثك عنه : « استمع إلى (دون جوان) ،
وإذا لم تستطع تكوين فكرة وأنت تستمع فلن تبلغ ذلك أبداً .
استمع إلى بدء هذه الحياة . انه أشبه بالبرق في غيمة ظلماء
عاصفة ، انه يفجر أعماق الخبر بأسرع من الصاعقة ، ويتزوان
أعظم من نزوانها ، ولكنه نزوان دقيق في الوقت ذاته . استمع
إليه كيف يندفع في الحياة المملأى المتنوعة ، كيف يتدفق من فوق
السد القوي ، استمع إلى نبرات كمانه الخفية الشجية ،
استمع لهذه الحماسة الجامحة ، وهذا التسارع المجنون ، وهو
يمضي أسرع فأسرع دوماً ، ودوماً هو أكثر جموحاً ، استمع
لمطلب الهوى الجامح ، استمع لتنفس الحبيب ، استمع لهمس
الفتنة ، استمع لصمت اللحظة ، استمع ، استمع ، استمع
إلى (دون جوان) (موزارت) ! » .

« المتناوبة - العشقية الموسيقية . البند الأول :

العبقرية الشهوية بوصفها مبدأ الاغراء » .

٢ - الرجل يحاول الافلات من شرك المرأة بالاغراء المحتمل على انه فن أقصى

ان القوة لا تروّض الرجل ، ولولا ذلك لاضطلعت
الالهة بذلك ، وذاك ما كانت تشعر بوجه الدقة بأنها غير قادرة
عليه . ولذاوجب القبض عليه وترويضه بقوة أضعف من قوته
ولكنها بالرغم من ذلك أقوى منها ، وهي تبلغ من القوة مايكفي
لوضعه تحت نيرها . ما هي إذن هذه القوة المعجزة التي ينبغي
اكتشافها ! ان الضرورة تعلّم الالهة نفسها ان تتجاوز نفسها
براعة . الالهة تفكر ، وتتأمل ، وتجد . ان هذه القوة ، هي
المرأة ، تحفة الخلق ، واسمى حتى من الرجل في نظر الالهة ،
ويبلغ شأو ذلك ان سداجة الرجال تجعلهم لا يكفون عن
امتداحها لهذا الخلق . ماذا يمكن ان نقول أكثر من ذلك
لامتداح المرأة ، اللهم إلا قولنا ان قوتها تمكنها من النهوض بما
تعجز عنه الالهة . وماذا نضيف أيضاً سوى القول بأنها تحقق
ذلك في الواقع ، وأية معجزة كان ينبغي أن تتوافر للحيلولة دون
ذلك ! وتلكم كانت حيلة الالهة . لقد صنعت الحسناء الفاتنة
من طبيعة مضللة : وماكادت ان تسحر الرجل حتى تحولت هي
للابقاء عليه في جو عبوديات العالم كلها . وهذا بوجه الدقة ما
أرادته الالهة . أترانا نقدر على تصور شيء أمتع وأحلى وأعذب

من هذه الحيلة التي اخترعتها الالهة لصيانة قوتها ، على انها
الشرك الوحيد الذي ينجح في الايقاع بالرجل ؟ والحق ان الأمر
هو هذا الأمر : ان المرأة شيء وحيد ، أجمل مخلوق فائن في
السماء والأرض ، وبهذا الاعتبار ليس الرجل سوى كائن ناقص
بالإضافة إليها .

وعلى هذا نرى ان حيلة الالهة قد حققت غرضها . ولكن
نجاحها كان متفاوتاً . ففي كل عصر وجد رجال ، قلة استثنائية
من الرجال ، كشفوا اللعبة . انهم لم يكونوا أقل حساسية ، بل
كانوا أرهف من الآخرين حساسية برشاقة المرأة ، ولكنهم
شعروا مع ذلك بالشرك . وهؤلاء الأشخاص هم الذين
ادعواهم العشاق واعتبرني واحداً منهم : ان الناس ينظرون
إليهم على انهم غواة ، وان المرأة لا تجد كلمة لتدل بها عليهم ،
لأنهم في نظرها ما يتعذر الاعراب عنه . وهؤلاء العشاق
وحدهم هم السعداء حقاً . ان حياتهم أعزب من حياة الالهة
لأنهم لا يتناولون سوى طعام أندر من رحيق الخلود ، ومحسون
شرباً أعذب من الكوثر : انهم يفتنون بأجمل نزوة ، بأبرع
فكرة الهية : انهم لا يأكلون سوى « الطعم » وحده ، أيتها
النشوة الفريدة ، ما أعذب هذه الحياة ! انهم لا يأكلون سوى
« الطعم » ، ولا يقعون في الشرك أبداً . أما بقية الرجال فانهم
ينقضون على « الطعم » ويلتهمونه التهام قروي « سلطة

الخيار» ويقعون في الفخ . ان العاشق هو الوحيد الذي يعرف حق المعرفة ان يقدر « الطعم » حق قدره اللانهائي ، ويمتنع على المرأة ألا تتنبأ بذلك . ولذا يقوم بينها وبينه تفاهم ضمني . أما هو فانه ينفرد بمعرفة ان الأمر ليس سوى أمر « طعم » ، وهذا السر إنما يحتفظ به لنفسه .

« مراحل درب الحياة - الحقيقة

في الخمر - مقالة يوهانس »

٣ - ان طريقي الاغراء كليتهما تتركان المرأة في حال من اللاتوازن واللارضى ، وهذه الحال تفضح نقص المرحلة الجمالية نقصاً أساسياً

« يوهانس !

اني لا أدعوك يا (يوهانسي) ، لأنني أعرف أنك لم تكن كذلك أبداً ، وقد لقيت من قسوة العناء ما يكفي لحملتي على ترك روحي تتلذذ بهذه الفكرة . وبالرغم من ذلك ، إذا ما نسبتك إلي فانك : فاتي ، وقاهري ، وعدوي ، وقاتلي ، ومصدر شقائي ، ولحد فرحي ، وهاوية دينونتي . ولذا أقول يا (يوهانسي) ، وسأقول اني لك (كوردليا) ، ولكن هاتين الكلمتين اللتين تروقا لأذنك عندما تستجيب لعبادتي ، لتقعان عليك إذ ذاك موقع اللعنة ، لعنة الأبدية كلها ! لا تفرح لفكرة انني اعترم اللحاق بك وتهديدك بخنجر لا سثير تهكمك ! ولكن

عبثاً تحاول الفرار ، فاني سأبقى لك . اذهب إلى آخر الدنيا ،
فأنا أبقى لك . وإذا أحببت مائة امرأة أخرى أبقى لك . أقول
اني أبقى لك حتى آخر ساعة من حياتك ؛ وحتى هذا الكلام المقيت
يبرهن على أي مدى أبقى لك . كيف جرأت على ان تخدع كائناً
لتصبح كل شيء بالنسبة إليه ، حتى صرت أجد فرحي كله في
أن أصبح أمتك ؟ انني لك ، لك ، لك ، انني لعنتك .
كوردلياك « المتناوبة -

يوميات غاو - المدخل »

٢ - المرحلة الأخلاقية

الحب الأول المفتوح في الزواج
هو حقيقة الانسان السوي الأخلاقية

ولكن لنرجع إلى الحب الأول ، انه تركيب الحرية
والضرورة : ان أحد العاشقين يشعر بأنه منجذب للآخر بقوة
قاهرة ، ولكنه ، بوجه الدقة ، يمنح وعي حرته من هذه
الحال . ان هذا الحب تركيب العام والخاص ، وهو يحتويهما
كليهما حتى تخوم الصدفة . ومن ناحية أخرى ، نرى انه
لا يستمد جميع هذه السمات من تحليل تفكيري : بل انه يتسم
بها مباشرة ، وبهذا الاعتبار فان الحب الأول حب دقيق أكثر

سلامة وأوفر حظاً بأن يكون أول حب صحيح . ان هذين الكائنين يتحركان أحدهما نحو الآخر بدافع قوة لا ترد ، وعلى الرغم من ذلك فانهما يتمتعان في لقاءهما بحريتهما التامة . . .

الحب الأول ينطوي إذن على وثوق المباشر . ولكن الفردين اللذين يشعران به يلقيان فوق ذلك غمواً دينياً . ولي ملء الحق ، بل ان علي واجب ، ان أفترض ذلك لانني عزمت على أن أبرهن على ان الحب الأول والزواج يمكن ان يتعايشا . والمسألة ، من ناحية أخرى ، تبدو في صورة ثانية عندما يحمل حب بائس الفردين على اللجوء لله وعلى طلب الطمأنينة في الزواج . ان الحب الأول هو عندئذ حب تشوّه طبيعته ، بالرغم من إمكان العثور عليها مرة أخرى . ومن البين ان العاشقين قد ألفا عزو كل شيء لله ، على أنحاء جدمتنوعة . ولكن من المؤلف أنها لا يلجآن لله في يوم الحزن ، وان الخشية والقلق ليسا هنا اللذين يدفعان بهما إلى الصلاة : فعندما يفيض قلبهما ، ويفيض كيانهما كله فرحاً وحبوراً ، أليس من الطبيعي جداً ان يتجها لله بالشكر؟ ان هذين الكائنين لا يخشيان شيئاً ، لأن الأخطار الخارجية لا تؤثر فيهما ، وأما الأخطار الداخلية فان الحب الأول يجهل حتى وجودها . ولكن فعال الشكر هذه لا تشوّه الحب الأول ، وان أية فكرة لا تتدخل لاثارة الاضطراب فيه ، انه مجرد حب رقى إلى منزلة أعلى .

وبالرغم من ذلك فان هذه الأفعال الشاكرة تنطوي عليه مثلما تنطوي أية صلاة على عنصر عمل لا يتجه دوماً نحو الخارج ، بل نحو الداخل ، وهو عمل يظهر هنا في صورة إرادة الاستمرار في الحب . . .

ويبقى من الثابت بيننا إذن ان الحب الزوجي من حيث هو مرحلة لا يتصف بأنه جميل جمال الحب الأول وحسب ، بل انه أجمل منه لانه ينطوي في حياته المباشرة على تركيب قوى متعارضة . وعلى هذا لا ينبغي اعتبار الزواج أشبه بشخص مبجل جداً ولكنه يثير سأمنا بمواعظه الخلقية ، بينما لا يكون الحب سوى شعر : بل الأمر عكس الأمر ، ان الزواج هو الشاعر بالدرجة الأولى . وفي الحق ان الحب الأول يعوزه المثل الأعلى الثاني ، المثل الأعلى التاريخي : انه لا يتضمن قانون الحركة . وإذا كان في وسع الايمان بالحياة الشخصية ان يكون إيماناً مباشراً على هذا النحو ، فان الايمان الذي يقابل الحب الأول قد يحسب ، من جراء الوعد ، بأنه قادر على رفع الجبال وتحقيق أعظم المعجزات . وهو قد ينجح في ذلك ، ولكنه بالرغم من ذلك لن يكون ذا تاريخ ، لأن سبحة هذه المعجزات كافة لا تؤلف تاريخاً ، بينما تمثل الايمان في الحياة الشخصية هو تاريخ الايمان . ومن اليبين ان الحب الزوجي يملك هذه الحركة لأن عزمه يتجه شطر الداخل . وهو يدع في

المجال الديني ، ان صح القول ، لله ان يعنى بالعالم كله ، ولكنه يريد ، في ذاك العزم ، عزمه ، وبالتعاون مع الله ، ان يناضل من أجل ذاته ، ان يغزو ذاته بذاته مع زمان الصبر . وبينما يقحم وعي الخطيئة فكرة عجز جذري هو عجز الطبيعة البشرية ، فاننا نراه هنا وقد انتصرت عليه عزيمة الزوجين .

« المتناوبة - قيمة الزواج

الجمالية - في أمكنة مختلفة » .

٣ - المرحلة الدينية

١ - ان أعمق واقع ليس الذاتية الزائفة للنزوات الجمالية ، ولا الموضوعية الزائفة للتأمل الهجلي ، بل هو الذاتية المأساوية للمستوى الديني

يتضح مما سلف بيسر ان المرحلة السابقة تقصد بعبارة : ان يكون - المرء - ما يسمى - فاعلاً ، أعني المباغت ، العجيب ، الاناني ، الغريب ، الخ . . . ان ذلك كله إنما يحمله كل انسان في ذاته بإسراف ، وان عليه ان يتخلص منه ، ومن الثابت ان المسيحية هي التي لا ترضى به ، المسيحية التي لم تستحسن كثيراً بوجه من الوجوه المداعبات السمجة . ولكن الفارق بين المسيحية والهجلية هو بالبحري هذه النقطة الماثلة في ان التأمل لا يزعم تعليمنا ان الدرب الوحيد الذي يجب اتباعه هو

ان يصبح موضوعياً ، في حين ان المسيحية تعلمنا ان الدرب
الواجب اتباعه هو ان يصبح ذاتياً ، أي ان يصبح المرء فاعلاً
حقاً . لنقل إذن ، وحتى لا يظن أحد أن المسألة مسألة خصومة
لفظية ، ان المسيحية تريد تزويد الهوى بطاقة وحمله إلى أرفع
درجاته ، ولكن الهوى بوجه الدقة هو الذاتية ، وهذه الذاتية
هي ، بصورة موضوعية ، غير موجودة أبداً .

« الحاشية الختامية على الفتات الفلسفية القسم الثاني

- المقطع الثاني - الفصل الأول « الصيرورة الذاتية » .

٢ - تعذر البرهان نظرياً على وجود الله

أليس مسعى البرهان على وجود (نابليون) بالانطلاق
من أعماله محاولة غريبة ؟ ذلك انه إن صح أن وجوده يفسر كثيراً
من أعماله ، فان أعماله لا تستطيع البرهان على وجوده ،
اللهم إلا إذا طرحنا وجوده في ضمير الغائب الذي يعود عليه .
وفوق ذلك ، فليس بين (نابليون) ، بوصفه فرداً وحسب ،
وبين أفعاله علاقة مطلقة تتيح القول بأن أي فرد آخر لم يكن في
وسعه ان ينهض بتلك الأعمال : ولعل ذلك هو السبب الذي
يدفعني إلى عدم استنتاج الوجود من الأعمال . وفي الواقع ، إذا
قلت ان هذه الأفعال أفعال (نابليون) يكون البرهان إذ ذاك

نافلاً ما دمت قد أسميتها . ولكنني إذا كنت أجهل اسم صانعها فكيف أبرهن بالأفعال ذاتها على ان فاعلها هو (نابليون) ؟ وكل ما أستطيع ان أو كده هو ان مثل هذه الأفعال لا بد وانها من صنع قائد عظيم ، الخ .

وبالمقابل ، توجد بين الله وبين أفعاله علاقة مطلقة ، لان الله ليس اسماً ، بل مفهوماً ، وهو من جراء ذلك ربما تتضمن ذاته وجوده . وعلى هذا النحو لا يقدر سوى الله وحده على أفعاله ، هذا حسن جداً . ولكن ما هي إذن أفعال الله ؟ هل هي أفعال مباشرة أستطيع بها ان أبرهن على وجوده ، انني لا أرى أدنى أثر لها ، إلا إذا قبلت ان فعل حكمته في الطبيعة ، وان أرى طبيته أو حكمته في العناية الربانية على انها أمور ظاهرة ظهور البداهة للعيان ؟ أليس في ذلك ، على العكس ، إفساح المجال أمام غوايات رهيبة يتعذر تجاوزها كلها ؟ كلا ، إنني لا أستطيع أن أتيح في الحق برهاناً على وجود الله من مثل هذا النوع من الاعتبارات ، ولو انني حاولت ذلك لما استطعت البتة ان أصل إلى نهاية ، بينما أجدني مضطراً إلى أن أحيادوماً حياة معلقة ، حياة خشية من أن يتفوق لي شيء رهيب يماثل الفرع من ضياع براهيني الصغيرة . ما هي إذن ، في آخر المطاف ، الأفعال التي أستطيع ان استمد منها برهاني ؟ أفعال تدرك إدراكاً فكرياً ، أي أفعال لا تتجلى تجلياً

مباشراً . ولكن من المتعذر أن يقال عندئذ ان برهاني مستخلص من أفعال . بل انه لا يجاوز اعلامه ما هو مضمّر في المثالية المفترضة : ان ثقتي به تساعدني على مجابهة جميع الاعتراضات ، وحتى الاعتراضات القادمة ، وعلى هذا أجدني وقد افترضت - كما ولواني اسهم في اللعبة - افترضت المثالية وافترضت يقيني بأن آراءها تنتصر على جميع العوائق : ولكن أليس ذلك هو افتراض مسبق لوجود الله ، واعتراف بأن ثقتي به تهيمن على محاولتي كلها ؟

والآن ، كيف ينتج وجود الله عن البرهان في هذه الفرضية ؟ ألا يجري الأمر وحده ، مثلما يجري في الدمى الخفيفة التي تسمى الدمى القلابة ؟ فمنذ ان ندع الدمى حرة نجدها تنهض فوق كرسيها الرصاصية . منذ ان ندعها حرة ، إذن ينبغي ان ندعها ! وكذلك الحال مع البرهان . انني ما دمت أمسك ببرهاني ولا أدعه (أي انني اتفاني في البرهان) لا يظهر الوجود - ولو بسائق انني ما زلت أحاول البرهان - ولكن ما ان ادعه حتى يتجلى الوجود . ولكن ألا يمثل فعل الافلات وحده شيئاً إذ ذاك ؟ أليس هو السحر الذي أجلبه ؟ انني مرغم على تذكر هذه اللحظة الصغيرة ، مهما كانت صغيرة : وانها من ناحية أخرى لا تحتاج إلى فترة أطول من اللحظة التي تستلزمها قفزة صغيرة ، مهما قصر أمد تلك اللحظة ، ولو لم تكن سوى طرفة عين ،

فلا بد من أخذ هذه الطرفة العين بعين الاعتبار . . .

ان من يريد إذن البرهان على وجود الله (بمعنى آخر غير معنى إظهار ما كان كامناً من مفهوم الله ، وبدون التحفظ الغائي الذي ألمعنا إليه قبل قليل ، أعني ان الوجود ذاته المستخلص من البرهان يحصل بقفزة) انه يبرهن عن غير عمد على قضية أخرى قد لا تكون في أغلب الأحيان بحاجة إلى برهان ، وهي في جميع الأحوال لا يمكن ان تحظى ببرهان أفضل . ذلك اننا إذا اعتبرنا مجنوناً ذاك الذي ينكر وجود الله في قلبه ، ذاك الذي كان يعلن في قلبه ، أو أمام الناس : « تريث قليلاً حتى أبرهن عليه ! » ، يا له من حكيم مضحك سيكون ! . . . ومن الجلي انه إذا لم يكن كذلك في عين لحظة بدئه بالبرهان ، في حال اللاقرار التام بين وجود الله أو عدم وجوده ، فانه لن يبرهن البتة عليه ؛ وإذا اعتبر هذا اللاقرار مدخلاً لممارسة اللعبة ، فانه لن يصل البتة حتى إلى البدء ، وذلك ناجم جزئياً عن خشية عدم النجاح فيما إذا كان الله غير موجود ، وجزئياً عن انه لا يجد ما به يبدأ . ان المشكلة لم تكن بلا ريب تحظى بمثل هذه الأهمية في العصر القديم . ولنلاحظ ، بالرغم من ذلك ، أن (سقراط) الذي يعتبر انه طارح البرهان الفيزيائي - اللاهوتي على وجود الله ، لم ينظر إليها مثلما ينظر معاصروننا . انه لا يكف عن افتراض ان الله موجود ، ويستند

على هذه الموضوعه طلباً لا نفاذ فكرة الغائية في الطبيعة . ولو ان
سائلاً سأل ان يسوّغ طريقته لا فصيح بلا ريب عن انه لم يكن
يملك شجاعة تكفي للاقدام على ارتياد خطر بدون ان يكون على
الأقل قد استند إلى واقع وجود الله . فهو ، ان صح القول ،
يلقى على دعوة الله شبكة ليمسك بفكرة الغائية : ذلك ان
الطبيعة ذاتها لا تخلو من أهوال ومن ضروب الشذوذ التي تثير
اختلاط أفكارنا .

إن هوى الذكاء المفارق يصطدم إذن على الدوام بهذا
المجهول الذي يوجد حتماً ، ولكنه يظل مع ذلك مجهولاً ، وبهذا
الاعتبار يكون غير موجود . ان الذكاء لا يستطيع المضي إلى ما
هو أبعد : ولكن إحساسه بالمفارقة يدفعه للدنو من العائق
ومعالجته . ذلك ان ليس بصحيح ان نزع الاعراب عن
علاقته (المجهول) ونحن ننكر وجوده ، مادام منطوق هذا
النفي يتضمن بوجه الدقة علاقة . ولكن ما هو إذن هذا
(المجهول) ؟ ذلك ان معاملته على انه إله إنما تعني انه مجهول
بالإضافة إلينا . ومن الجلي ان الاقتصار على الاعلان بأنه مجهول
بالنسبة إلينا لأننا لا نستطيع معرفته ، ولأننا كذلك لا نقدر على
الافصاح عنه ، ان ذلك لا يرضي هوى الذكاء ، بالرغم من ان
الذكاء لا يخطئ إذا ما رأى أن في هذا (المجهول) حده : بيد
ان الحد هو ، بوجه الدقة ، منعطف ذاك الهوى وشاحه معاً .

وعلى الرغم من ذلك ، يظل من المحال ان يتجاوزه الذكاء
ويمجازف بالعثور على مخرج عبر النفي ، أو عبر التفوق
الروحي .

ما هذا (المجهول) اذن ؟ انه الحد الذي لا نكف عن ان
نزع شطره ، وهو بهذا الاعتبار ، وعندما نستعيض عن مقولة
الحركة بمقولة السكون ، هو ما يغاير ، ما هو مغاير مغايرة
مطلقة . ولكن المغاير المطلق هو ما لا نملك عنه أية إشارة مميزة .
وعندما نعرفه على انه المغاير المطلق فانه يبدو على وشك الكشف
عن ذاته ، ولكن هذا خطأ ، لان المغايرة المطلقة أمر يعجز
الذكاء عن ان يلم بها بفكره ، والذكاء لا يستطيع محاولة مثل
هذا الجهد إلا بوسائله الخاصة ، ولذا فانه يفكر في الفارق
بذاته ، مثلما يفكر فيه لذاته . وإذا لم يبق (المجهول) (الله)
مجرد حد ، فان تصورات الفارق المختلفة تبعث الاختلاط في
فكرة المغايرة ، تلك الفكرة الواحدة ، ان المجهول يقع اذن في
العشوائية ويبقى الذكاء حراً في اختيار ما يشاء مما يعرض أمامه أو
مما يعثر عليه في تخيله (المسخ ، المضحك ، الخ) .

ولكن مثل هذه المغايرة المطلقة لا يمكن تثبيتها . وكلما
حسب امرؤ انه استطاع ذلك وجد ان الأمر في آخر المطاف ليس
سوى أمر تعسف وان في أعماق خشية الله يجثم اللامعقول ،
التعسف الخيالي ، وهو يعني انه انتج كذلك الاله المعني . . .

« الفئات الفلسفية - ٣ - المفارقة

المطلقة : وهم ميتافيزيائي » .

٣ - ضرورة البرهان على إله شخصي بطريق الايمان
إن موضوع الايمان هو واقع كائن آخر ، وإن موقفه
موقف لانهائي الأهمية . فليس موضوع الايمان مذهباً ، لأن
العلاقة تغدو عندئذٍ علاقة فكرية ، ولن يتناول الأمر حل
الأشكال على المستوى العملي ، بل بلوغ أعلى نقطة في العلاقة
الفكرية . إن موضوع الايمان ليس أستاذاً ذا مذهب ، لأن
الاستاذ ان كان له مذهب ، فإن المذهب يصبح ، من جراء
ذلك ، أكثر أهمية من الأستاذ ، وعندئذٍ نرجع إلى عين الحالة
السابقة . ولكن موضوع الايمان هو واقع من يدرس ، واقع انه
يوجد حقاً . ولذا فانه جواب الايمان يتجلى بصورة قطعية إما في
« نعم » أو « كلا » . ذلك ان جواب الايمان لا يتطلع لمذهب ،
بل ولا يتطلع لاستاذ نريد ان نعرف هل ان مذهبه حقيقي أم
خاطيء ، بل ان يحل مسألة راهنة : « هل تعترف بواقع هذا
الوجود الفريد ؟ » . ولنلاحظ ان الجواب معطى بهوى
لانهائي . وهو في الواقع سلفاً إمارة طيش ، عندما يتعلق الأمر
بجاره ، ويان يعلق أهمية لانهائية على مسألة ان يعترف هل وجد
ام لا : فإذا لم يكن موضوع الايمان إلا رجلاً ، لم يكن إذن في هذا
الموقف بأسره سوى سخف غريب ، سخف فرد لم يفهم الجمالي

ولا المستوى الفكري. ان موضوع الايمان لا يمكن أن يكون إذن إلا الواقع الوجودي لله . ومن المعلوم ان الوجود يعني أول ما يعني ان يكون الوجود (فرداً) ، ولذا فان الفكر يرى ان عليه ان يغض الطرف عن الوجود ، إذ لا يوجد أي مفهوم عن الفردي ، بل عن العام. ان موضوع الايمان هو إذن واقع الله في الوجود ، أي واقع الله بوصفه فرداً : أي ان الله قد وجد وجود انسان فردي .

وعلى هذا فان المسيحية ليست مذهب وحدة اللاهوت والناسوت ، ليست مذهب الفاعل - الموضوع ، إذ لم نقل شيئاً عن الكنايات الأخرى التي يدل بها عليه منطق المذهب . وفي الحق ، إذا كانت المسيحية مذهباً ، فان العلاقة التي تقام به لا يمكن أن تكون علاقة إيمان ، إذ لا توجد سوى علاقة فكرية بالمذهب . ان المسيحية ليست إذن مذهباً ، بل هي واقع ان الله قد وجد .

ولذا فان الايمان ليس نظاماً خاصاً بما هو نافل في دائرة الفكر ، وليس كذلك ملاذاً للعقول الضعيفة . ولكن الايمان دائرة أصلية ، وكل خطأ حول طبيعة المسيحية لا يلبث ان يتضح من حيث أنه يحيلها إلى مذهب لجرها إلى مجال الفكر . ومن المعلوم انه في حين ان أرفع نقطة يمكن بلوغها في دائرة الفكر هي اللامبالاة حيال واقع الرب ، فان الأمر على العكس في دائرة

الايمان ، ذلك ان أرفع نقطة هي الاهتمام اللانهائي بالواقع الوجودي للرب .

» الحاشية - القسم الثاني - المقطع الثاني -

الفصل الثالث - البند ٢ ، .

٤ - ليس الدين ، كذلك ، عاطفة ، بل هو تعبير صحيح عن المرضي الأعظم من المرضي الجمالي : وان احترام هدف مطلق يتجلى فيه بتحول الوجود تحولاً تاماً

» ليس المرضي الذي يقابل أدق ما يقابل تتبع غبطة سرمدية سوى تحول به يغير الكائن ، من حيث انه كائن ، كل شيء في وجوده بحسب هذا الخير الأسمى . ومن المعلوم ان الكلام ان كان يقابل أرفع ترضي على مستوى الامكان ، فانه على صعيد الواقع يقابل العمل ...

بيد ان الوجود مؤلف من اللانهائي والنهائي ، وان الكائن هولانهائي ونهائي معاً . وعلى هذا إذا اعتبرت الغبطة السرمدية على انها خير أسمى ، فذاك يعني ان العمل قد أرجع مراحل النهائي دفعة واحدة إلى شيء ينبغي التوضيح به بدون انقطاع في سبيل الغبطة السرمدية ...

إن قوام المفجع إذن هو الاعراب عن ذلك الوجود بأن يوجد ، وليس قوامه ان يشهد لصالح غبطة سرمدية ، بل

لتحويل وجودنا بأسره إلى شهادة حيّة . ان المرضي الشعري هو مرضي متميز يضع الشاعر فوق القدر ، ولكن المرضي الوجودي أو الديني مرضي مسكين ، مرضي كل الناس ، لان في وسع كل انسان ان يؤثر في ذاته ، وأحياناً نجد لدى خادمة البيت المرضي الذي كنا نبحت عنه عبثاً في وجود شاعر . ومن جهة أخرى ، يستطيع كل فرد ان يتحقق بيسر من كيفية انتمائه لغبطة سرمدية ، بل أن يتساءل هل انه ينتمي لها حقاً . وليس له إلا ان يفسح المجال أمام الصبر ليزور مجال حياته المباشرة ، بكل رغباته وكل أهوائه : فإذا وجدت ثمة أية مقاومة فذلك انه لا ينتمي لغبطة سرمدية . لا شيء أيسر من الناحية الوجودية من هذه العملية : ذلك انها إذا بدت شاقة في نظر بعض الناس فان مرد ذلك أن حياتهم المباشرة لا تريد الانفتاح على هذا التقصي ، وهذا دليل قاطع على ان المرء المعني لا ينتمي لغبطة سرمدية . وان حادت منح الصبر حق التنقيب في الحياة المباشرة ليتضمن في الواقع ان المرء يعزف عن اعتبار هذه الحياة هدف وجوده الحقيقي ، وان في وسع الصبر ان يعلمه ذلك . أما إذا رفض إقحامه فذاك دليل على انه يعتبر نفسه قد بلغ في الدنيا قدراً كافياً من السعادة يجعله يرغب عن ان يسمع الحديث عن أي شيء آخر ، أو انه ، بالرغم من اعلانه بانه أتعس انسان في العالم ، لا يزال يخشى الأسوأ ، أو انه يأمل في تحسين مصيره

بمكيافليته ان كان ماكراً ، وبأريحية الآخرين ان كان يشعر
بعجزه : وفي جميع الأحوال ، انه لم يجعل أمله في غبطة
سرمدية . - وبالمقابل - إذا كان الصبر لم يلق مقاومة كافية خلال
تنقيبه ، فذلك دليل على ان ذاك الانسان ينتمي لغبطة
سرمدية .

« الحاشية - القسم الثاني - المقطع الثاني أ -
المفجع - البند الأول »

هـ - ولكن هذا التحول الذي يتناول الوجود
بالمرضي الديني إنما هو تحول داخلي كله

إذا عشق عامل فقير أميرة وحسب انها تبادله الغرام ، فما
هي أحسن السبل للابقاء على هذه العلاقة ؟ أليس ذلك في ان
يثابر على حياة سائر العمال تماماً ، وان يذهب إلى العمل
كالاعتاد ، وان يستمر في مشاركة رفاقه مصيرهم ؟ وعندئذ ، إذا
أتاح العمل له فرصة التفكير في حبه ، ألا يجد تشجيعاً في فكرة ان
وضاعته هي في نظر الأميرة أفضل خصاله ! وان ذلك لا يحول
دون ان يخصصها في اعماق كيانه بعبادة موصولة وان يحلم بحبور
إمكان البوح لها بحبه بوحاً أوضح إذا جرؤ على ذلك ؟ ذلك ان
لن يخطر ببال هذا العامل الوضع فكرة ان الأميرة قد تكون
خبیثة وصلفة على نحو يجعلها تطالبه بأن يبرهن أمام العالم بقيامه

بأعمال خارقة تدل على انها حبيبة إنسان كادح .

ومن الجلي ان ثمة بعض تصور يتناول العاطفة الدينية على انها تنزع ، لانها لم تطرح الخطوات الاولى من تفاني المؤمن على صعيد الحياة الداخلية ، تنزع الى تصور الله على انه كائن مستبد جبار قصير النظر حريص على رغبة غريبة هي رغبة ان يعرف الناس كلهم انه محبوب انسان معين بنتيجة سلوك ذاك الفرد سلوكاً غريباً . ونحن لا نرى كيف يمكن ان يجد الله في ذلك علاقة اجلال جديرة به ، بينما لا يذهب احد الى ان حب العامل يشرف الاميرة ! ان مثل هذه العاطفة الدينية ، وهي ذاتها عاطفة مرضية ، غير سليمة ، تنتهي بان تقدم عن الله ذاته فكرة مرضية وغير سليمة . ان حادث ، ان انساناً مولعاً بالتسلط الطاغوي يقرر على الشعور باللذة حين يرى ملايين البشر يخضعون له خضوعاً جلياً ، هذا الحادث يدل على مدى اتساع سلطة ، ولكنه لا يدل البتة على شيء فيما يتعلق بالله . وبالرغم من ذلك ، فان الانسان الديني قد لا يتردد في ان يسلك سلوكاً مماثلاً اذا انتهى الى مثل تلك الفكرة عن الله بان الله بالمعنى الصحيح يحتاج الى ان يذهل الناس وان يفوز بهذا الاعجاب الناجم عن سلوك المؤمنين مثل ذاك السلوك الغريب ، وانهم على هذا المنوال يجعلون البشر يفتنون لوجود الله - ياله من اله بائس ذاك الذي وهو في وضع شاق لانه غير مرئي ، قد يرغب في ان يلتفت

نظر الجمهور الى مثل هذا الحد ، وان يكون دائماً يجري خلف
كائن ثالث من اجل لفت ذاك الانتباه باسمه !

« الحاشية - القسم الثاني

- المقطع الثاني - أ - المفعج »

٦ - الخطيئة نظام واقع ينتظم من تلقاء ذاته

ان حادث ان يجد المرء ذاته في الخطيئة يؤلف خطيئة
اخرى ، واذا استخدمنا صيغة ادق نرجو ايضاً قلنا انه يبقى
في الخطيئة او انه يجد الخطيئة ، ويجترحها . وسيجد الخاطئ
بلا ريب اننا نبالغ هنا ، وهو ذاك الذي لا يكاد يعترف بان اية
خطيئة راهنة اخرى هي خطيئة جديدة . ولكن السرمدية ،
وهي تعرف حساباتها ، تعزوله حال الخطيئة على انها خطيئة
جديدة وان سجلها الكبير لا يحتوي إلا على جدولين وان « كل ما
ليس من الايمان فهو خطيئة » (رومية - اصحاح ١٤ آية ٢٣) ان
عدم التوبة بعد كل خطيئة يعتبر لحظة فلهظة عدداً مماثلاً من
الخطيئات الجديدة . ولكن علينا ان نعترف بان من النادر ان
نجد انساناً يكون وجدانهم الداخلي موصولاً حقاً ؛ ونحن في
اغلب الاحيان لا نعي ذواتنا الا بصورة متقطعة ، عندما يجب
اتخاذ قرارات حاسمة ، وحتى بدون ان ننتبه الى الحياة اليومية :
اننا لا نكاد نخص حياتنا الروحية بعد تحررنا من سائر المشاغل
الا بساعة واحدة تقريباً في الاسبوع . وهذا بالبداية طراز وجود

جد حيواني ! وبالرغم من ذلك فان جوهر السرمدية يظل استمراراً ، وانها لتطالب الانسان بهذا الاستمرار حين تقتضي منه ان يعي حياته الروحية وان يؤمن . أما الخاطيء ، على العكس ، فانه يقع تحت نير الخطيئة على نحو انه لن يأخذ باعتباره هذا الخنوع التام الذي لا يكف عن جره على طريق الضياع . وهو لا يبالي الا بالخطيئة الجديدة الخاصة التي قد تبعث على تسارع هبوطه في هذا المنحدر ، كما لو انه لم يكن قد هوى في اللحظة السابقة الى درك كاف بالسرعة الكبرى الناجمة عن سلف من خطيئاته . لقد تأقلم مع الخطيئة تأقلاً حسناً جداً حتى صارت الخطيئة طبيعته الثانية وامسى لا يرى اي شذوذ في سلوكه اليومي ولا يشعر بالارتكاس الا حين يلقي من كل خطيئة جديدة دافعاً اضافياً . وفي غمرة هذا الضياع لا يرى انه قد استعاض عن استمرار السرمدية الحقيقي (استمرار المؤمن الذي يعرف انه امام الله) باستمرار وجوده الخاص ، استمرار الخطيئة .

اننا نتكلم على « استمرار الخطيئة » . ولكن الخطيئة ليست هي بوجه الدقة اللا استمرار ؟ اننا نرجع هنا مرة اخرى الى النظرية التي لا ترى في الخطيئة سوى مجرد نفي عاجز كل العجز عن التحلي بواقع خاص ، مثلما يعجز المال المسروق عن تسويغ شرعيته بالتقادم : خطيئة نفي يسعى عبثاً الى ان يكون

كيانه الخاص وهو يعجز عن بلوغ ذلك بالرغم من جميع الالام التي تصيب هذا العجز في تحديه اليأس . اجل ، على هذا المنوال يتصور الفلاسفة الخطيئة . ولكن المسيحي (وعلينا ان نصدق ما دمنا نجدنا امام مفارقة لا يستطيع فهمها احد) ، يرى ان الخطيئة وضع ، انها شيء ايجابي ينتظم من تلقاء ذاته في استمرار ايجابي كل الايجابية .

د الداء المميت - القسم الثاني - اليأس خطيئة .

ب - استمرار الخطيئة - المدخل .

٧ - اليأس - الفضيحة وجدل الايمان

هنا يصدر رقي الشعور بالانا عن معرفة (المسيح) الذي يجد نفسه امامه . وقد اظهر لنا القسم الاول سلفاً الانسان الذي يجهل اناهُ السرمدية ، ثم الانسان الواعي لانا تتضمن بعض عناصر السرمدية . وارجع القسم الثاني هذا الموقف الى حادث ان الانا تعي ذاتها وعياً انسانياً او غاية انسانية . وتأتي فكرة الانا حيال الله لتعارض ذلك ، وهي مستوى من الوعي يصلح اساساً لتعريف الخطيئة .

هذه الآن هي الانا امام (المسيح) ، وهي بالرغم من ذلك انا لا تريد ، وهي في حال اليأس ، ان تكون ذاتها او انها تريد ذلك على نحو سيء . ذلك ان القنوط من غفران الخطيئة

يرجع في الواقع الى صيغة من صيغ اليأس ، اليأس -الضعف او اليأس -التحدي : ضعف مفضوح عاجز عن الايمان ، او تحدي مفضوح يرفض الايمان ، ولكن الامر لما لم يبق هنا امر مجرد ان يكون المرء ذاته ، بل ان يظهر على انه مخطيء ، اي على صعيد نقصه ، فان الضعف والتحدي هما تماماً ضد واقعهما المؤلف . فمن المؤلف ان يكون ضعف اليأس عزوفاً عن ان يكون هو ذاته : وهذا الموقف يكشف هنا ، على العكس ، عن التحدي ، ما دام من التحدي رفض اعتراف المرء بما هو عليه ، خاطيء ، ومن ثم ، رفض غفران خطيئاته . ومن المؤلف ، بالمقابل ، ان من التحدي اليأس أو ان يريد المرء ان يكون ذاته ولكن هذا الموقف يرجع هنا الى الضعف : ان اليأس يقوم عندئذ على ان يريد المرء ان يكون هو ذاته ، اي خاطئاً ، وان ليس ثمة من مجال للمغفرة بصدده .

ان الانا حيال (المسيح) هي انا قد رقت الى درجة عليا بالتنازل الالهي الواسع ، بالقيمة الكبرى ، القيمة التي منحها الله اياها عندما قبل ان يولد وان يتأنس وان يألم ويموت جزئياً من اجل خلاصها . وما ذكرناه من قبل من ان الانا تتقدم مع مفهوم الله صحيح هنا ايضاً : فكلما نمت فكرة (المسيح) في ذات المرء زاد رقي اناه . وان قيمة الانا تتبع مقياسها . وعندما وهبنا الله (المسيح) مقياساً فانه قد ذكرنا وابان لنا الى اي مدى

يمكن ان يمضي واقع الانا . ذلك ان الله لا يتجلى حقاً الا في
(المسيح) على انه غاية الانسان ومقياسه ، او اذا فضلنا ، على
انه مقياسه وغايته . ولكن شدة الخطيئة تربو كلما زادت شدة
الانا . . .

ان الخطيئة التي ييأس المرء فيها من غفران خطيئاته هي
الفضيحة . وقد اصاب اليهود - بهذا الاعتبار - حين شعروا
بالفضيحة امام (المسيح) الذي كان يريد ان يغفر الخطايا . ولا
بد من توافر درجة من اللاحساسية الروحية تضاهي درجة ما
يسود لدى المسيحيين الحديثين حتى لا يشعر المرء بالفضيحة ،
عندما لا يكون مؤمناً ، (لانه يؤمن بالمسيح في تلك الحالة) ،
امام انسان يزعم انه يغفر الخطايا . وانا اضيف ان لا بد من توافر
قدر كبير مماثل 'من' اللاحساسية حتى يسمع ، بدون شعور
بالفضيحة ، بان الخطيئة يمكن غفرانها . انني اعترف بان
ذلك ، بالنسبة للعقل البشري ، هو اسوأ محال ؛ وبدون ان
يقود ذلك الى اعتبار ان من لا يستطيع تصديق ذلك هو انسان
عبقري ، لان من الواجب تصديق ذلك . . .

هامش - يلاحظ ان اليأس بصدد الخطيئة كان فيما سلف موضع
نظر بحسب الجدل الذي يقود الى الايمان . ذلك ان وجود هذا
الجدل (بالرغم من ان الكتاب الحالي لا يعالج اليأس الا
باعتباره مرضاً) امر ينبغي ألا ننساه ابداً ، وذلك لأن اليأس هو

ايضاً المرحلة الاولى ، العنصر الاول في الايمان . وبالمقابل ، عندما يرغب يأس الخطيئة عن الايمان ، وعن الله ، تنتج خطيئة جديدة . وعلى هذا فان كل شيء جدلي في الحياة الروحية . ولذا فان الفضيحة ، باعتبارها امكاناً ملغياً ، هي عنصر من عناصر الايمان ، ولكنها اذا حولت الانظار عن الايمان لم تبق سوى خطيئة . وعلى هذا النحو يمكن ان نشكو اي شخص لانه لم يقدر حتى على الشعور بالفضيحة من المسيحية ، وعندئذ نعتبر الفضيحة خيراً . ولكن من الواجب ، بالمقابل ، الاعتراف بان الفضيحة هي خطيئة ايضاً .

« الداء المميت - القسم الثاني - اليأس خطيئة .

ب - استمرار الخطيئة ب - الفضيحة » .

٨ - ان جدل الخلاص الحقيقي هو الالم امام الله

ان الفرح ، بالرغم من ذلك ينتهي بانه آت ، وان له دوماً الكلمة الاخيرة . ذلك انه اذا تعذر ان تدوم اية مدرسة دوام مدرسة الالم ، فان اية مدرسة اخرى لا تهيؤنا للحياة السرمدية ، وقد يتفق اخيراً ان يُبعث التلميذ في مدرسة السرمدية . ان الفلسفة والعلم لا يهيئان كلاهما للسرمدية : وليس من معلم آخر يعلم ذلك الا الالم ، والطاعة التي يلقننا اياها . وتبلغ صحة ذلك ان من كان ، ومن بقي ، الحقيقة ،

من كان يعرف كل شيء ، قد آمن بالرغم من ذلك بان من الخير ان يتعلم شيئاً واحداً : تعلم الطاعة بالشدائد التي عاناها . ولو جاز ان يتعلم الانسان اطاعة الله خارج الالم لما احتاج (يسوع - المسيح) ، بوصفه انساناً ، الى تعلمها بالالام . ان هذه الالام قد علمته الطاعة الانسانية لان تقيد ارادته الالهية بارادة (ابيه) ليست حتماً من نوع الطاعة ، بالمعنى الذي نفهمه . وعلى هذا فان الطاعة تعزى الى الخط من شأوه ، لاننا نعلم انه تنازل بنفسه واصبح مطيعاً . ولكن تنازله هو الشرط الانساني : ولذا فان الطاعة بالنسبة للانسان امام الله لا يمكن تعلمها الا بالالام ، واذا صبح ذلك بالنسبة لمن كان (النقاء) بالذات ، فكم بالحري يصح بالنسبة للخاطيء ! ان الالم اذن هو المدرسة الوحيدة للسرمدية ؛ لان السرمدية تفترض الايمان ، ولكن الايمان يفترض الطاعة . والطاعة لا يمكن تصورها خارج الاله ، ولا الايمان خارج الطاعة ، ولا السرمدية خارج الايمان . ولكن الطاعة في الالم هي الطاعة الحقيقية ، والايمان في الطاعة هو الايمان ، والسرمدية في الايمان هي السرمدية حقاً .

» إنجيل الآلام - الفصل الثالث -

الخاتمة .

جـ - الفكاهة التهكمية ، مقولة جدلية للنضج الروحي والوجود المشخص

١ - الفكاهة التهكمية ونجوم الدينى الاخلاقىة

وعلى هذا النحو تعرف الفكاهة التهكمية على انها آخر منطلق بالنسبة للدين المسيحى . وفى الفلسفة الحديثة المزعوم بانها علمية ، اصبحت الفكاهة التهكمية - على العكس - مرحلة اسمى يبلغها الانسان بعد الايمان : ذلك ان الايمان يعتبر عندئذ لصيق المباشر ؛ فى حين ان التأمل الذى يفترض فيه انه يمضى الى ابعاد من الايمان انما يتيح بلوغ الفكاهة التهكمية . وهذا هو الاختلاط العام الذى يؤدى اليه تأمل المنظومة بقدر زعمها تحديد مصير المسيحية .

اما الحقيقة فانها مغايرة تماما . ان الفكاهة التهكمية تقصر المحايثة داخل المحايثة ، بل هي بالدرجة الاولى تقوم على اعادة تذكر لا ينفذ الى دائرة الوجود السرمدة التى يبدأ فيها الايمان والمفارقات معاً . ان الفكاهة التهكمية هي آخر مرحلة امام الايمان فى صميم الوجود . ولذا كان من الضرورى فى رأينا تعريفها تعريفاً لا تبقى معه اية مرحلة غير معرب عنها من المراحل التى تقرر على الامساك ببعض الاختلاط ، وعلى هذا

المنوال انتهينا الى عرضها في بحثنا « حكاية الالام » . ان الفكاهة التهكمية ليست اذن هي الايمان ، بل هي تسبقه ، وهي أبعد عن أن تليه باعتبارها نوعاً من تقدم جدلي . وترى الاخلاق المسيحية في الواقع ان الانسان لا يجاوز مستوى الايمان لان الايمان هو ارفع ما يوجد في نظر كائن ، وكما اوضحنا ذلك ايضاحاً وافياً في الصفحات السابقة . وحتى عندما تتناول الفكاهة التهكمية مشرئبة الى المفارقة ، فانها لا تفعل ذلك على نفس المستوى الذي يقوم به الايمان . ان الفكاهة التهكمية لا تستعير من المفارقة هذا الجانب الاليم الذي يقابل المضمون الاخلاقي للايمان ، بل تكتفي بجانبها المسلي . ذلك ان الامر امرالم ، امر شهادة يعانيها الايمان ، حتى في فترات الامن ، عند رؤية ان الخلاص يتعلق بما يقنط منه العقل . وبالمقابل ، ان بعض الفكاهة التهكمية الذي لما ينضج (بل لما يبلغ درجة هذا التوازن بين الهزلي والمأساوي وهو في نظرنا يؤلف قوام الفكاهة التهكمية بالمعنى الصحيح) ، فان هذه الفكاهة التهكمية غير الناضجة هي نوع من جيشان ينبثق بصورة مبكرة باسراف من ربة التفكير . وان الفكاهة المتهمك الذي اتعبه الزمان وتعاقبه اللانهاية ينفصل عنه عندئذ بقفزة ويجد سلواه الفكاهة بمشاهدة سدى المشهد ، مثلما يشعر المرء بسلوى ممائلة حين يسخر من الحياة ويضفي قيمة على السخف والتفاهة ولا يرى في الكون

باسره سوى فرصة لعبة اوتاد او امتطاء صهوة جواد . غير ان الفكاهة التهكمية غير الناضجة لا صلة لها آنذاك بالعاطفة الدينية : والحري بنا ان نعتبرها جهداً جمالياً يتوخى القفز من فرق الاخلاقي .

وعلى هذا فان الفكاهة التهكمية تسبق الايمان ومجال الحقيقة الدينية المسيحية . وهذا ما يوضح ، من ناحية أخرى ، أية لعبة وجود واسعة يمكن تصورهما خارج المسيحية ، ولكنه يظهر ، بالمقابل ، مدى التجرد المطلوب للاحاطة بالمسيحية إحاطة صحيحة .

« الحاشية - القسم الثاني / المقطع الثاني - ملحق نظرة إلى جهد مواكب في الأدب الدائري »

٢ - الفكاهة التهكمية والمجهول الديني

إن وضع الفكاهة التهكمية بالنسبة للديني كوضع المتهم بالنسبة للأخلاقي ، لأن الجدل المحايث في المرحلة الدينية . . . بالاستناد إلى ما أسلفنا ، يمنع من أي تعبير مباشر عن أية معرفة مطابقة للفارق الأساسي ، ولا يكف عن الاحتجاج على كل قياس مشترك جائز بين الخارج والداخل ، مع تقديره تقديراً أعظم إلى ما لا نهاية ، بحسب الفرضية ، للعزيمة الرهبانية بأكثر من تقدير التأمل الهجلي .

بيد ان الفكر لا يفتأ ^(١) يلحق تصور الله بشيء آخر وإذ
ذاك ينبج التناقض - ولكنه لا يعزو نفسه لله بهوى ديني
(بأعمق معنى لهذه الكلمة) : أنه صديق المزاح ، ولكنه
بالرغم من ذلك عميق ، انه يحول ذاته إلى ملتقى هذه المجاهبات
كلها ، بدون ان يعزو نفسه بالرغم من ذلك إلى الله . ان
الديني ، في النظرة الأولى ، ينطلق من ذاته ، أي ان يلحق
تصور الله بالكل ويدرك التناقض ، ولكنه في أعرق صميم كيانه
يعزو نفسه كلها لله : وبينما تخضع العاطفة الدينية المباشرة
للوئاس التقى المائل في إدراك الله مباشرة في الأشياء كلها ،
وبينما يصدر المتجدد ^(٢) الزعم الأحق باحتكاره الله لفائدته
حصراً ، على نحو انه يكفي ان نصادفه حتى نتأكد من ان الله هو
أيضاً ضمن العملية ، لأنه يحمله في جيبه .

ينجم عن ما تقدم ان العاطفة الدينية مع الفكاهة
التهكمية بوصفها مجهولاً هي إذن وحدة الهوى الديني المطلق

(١) أنه لا يعمل ذلك دوماً بالمعنى الذي يستخدم فيه القس هذه الكلمة ، بل
انه يحافظ على هذا الاتجاه الروحي في كل ساعة من ساعات النهار وفي جميع الظروف ،
(بين معترضتين في النص الذي كتبه كيركغارد) .

(٢) يدل كيركغارد بكلمة متجدد ، أكثر ما يدل ، على تلاميذ (كروندفيك)
Grondtvic أي أعضاء حركة ابداعية هي حركة اليقظة اللوثرية ، وكانوا يكتفون من
الكلام على « تجربتهم الدينية » (ملاحظة من المترجم إلى الفرنسية) .

(المعمق جدلياً) مع النضج الروحي الذي يدعو العاطفة الدينية من الخارج إلى الداخل ، وبذلك تجد نفسها من جديد على انها الهدى الديني المطلق . ان الفكاهة التهامية تكتشف ان ما يشغلها بصورة مطلقة لا يبدو انه يشغل الآخرين إلا قليلاً ، ولكنها لا تستمد من ذلك أية نتيجة ، أولاً لأنها لا تملك متسعاً من الوقت لتعمق المسألة ، ثم لأنها لا تستطيع ان تعرف بيقين هل لا يكون جميع هؤلاء الناس ، بالرغم من ذلك ، فرسان الحياة الداخلية الخفية . بيد ان الوضع يقودها إلى إطاعة أسلوب الاستبطان الجدلي ، إلى ان يقيم بين الناس وبينه حاجزاً لحماية حياته الداخلية من الالم ومن العلاقة الالهية . ولكن ذلك ، بالرغم من ذلك ، لا يؤدي إلى أن يعتنق هذا الانسان الديني اللافاعلية على هذا المنوال : بل الأمر على العكس لا يخرج من العالم ، بل يبقى فيه ، لان في ذلك تماماً بوجه الدقة ما يؤلف مجهوله . ولكنه يتعمق بصورة داخلية عمله الخارجي أمام الله إذ يعترف بأنه لا يستطيع شيئاً ، وإذ يعرف عن إقامة علاقة غائية مع الخارج ، ويبحث عن كل نجاح في هذا العالم ، حتى وهو يعمل بكل قواه : وفي هذا تماماً قوام الحماسة الصحيحة . . .

ولكن يبدو انه ينتج من الحياة الداخلية الخفية ، ومن الفكاهة التهامية بوصفها مجهولاً ، ينتج ان الفرد الديني مصان

من أية غواية ترمي لجعله يصبح شهيداً ، وهذا ما ينصرف
المتجدد بإسراف إلى نشدانه . أجل ، بالطبع ، ان فارس الحياة
الداخلية الخفية مصان ضد ذاك الخطر ، وهو بالاضافة
للمتجدد الذي يتقدم دونما وجل أمام الشهيد ، ليس إلا طفلاً
مسكيناً ما يزال رضيعاً - اللهم إلا إذا كان الشهيد الحقيقي
لا يقوم - على العكس - على الم التفاني الذي يشعر به بالعزوف
عن المباشر ومقاومة الالهى ذاته ضد هذا الكائن الذي
لا يتوصل إلى ان يعزو نفسه بإطلاق إليه ، وأخيراً في حادث ان
يحيا في الدنيا هذه الحياة الداخلية كلها بدون ان يملك وسيلة
موائمة للاعراب عنها .

« الحاشية - القسم الثاني - المقطع الثاني أ

- المفجع البند الثاني »

٣ - خاتمة

سر مصير المفكر الذاتي

عندما يبحر مركب يعرف الربان في العادة سلفاً مسيرته كلها . ولكن حين يكون المركب سفينة حربية لا يستطيع الربان إلا في عرض البحر ان يفتح أخيراً الأمر بالاتجاه الذي ينبغي عليه اتباعه في سيره . وكذلك حال العبقري : انه مهياً للسفر في عرض البحر ، وهناك يلقي أوامره . أما نحن الآخرين فاننا لا نكاد نعرف سوى نتف من النتف عن المشاريع التي تشغلنا .

« دفاتر - ٦ ، أ - ٩٣ »

فهرس

٥	حياته . - وجود جدلي
١٩	الفلسفة
١٩	١ - التهكم السقراطي بوصفه منطلقاً . . .
٢٢	٢ - فلسفة مراحل الوجود
٢٤	١ - المرحلة الجمالية
٢٨	٢ - المرحلة الأخلاقية
٣١	٣ - المرحلة الدينية
٣٣	أ - مثالية المرحلة الدينية
٣٦	ب - حقيقة واقع المرحلة الدينية : الألم والذاتية
٣٨	ج - المحايثة والتعالى
٤٠	٣ - الفكاهة التهكمية نقطة وصول
٤٣	منتخبات
٤٣	أ - التهكم ، مقولة جدل تمهيدية
٤٣	١ - التهكم السقراطي
٤٦	٢ - التهكم التأملى
	٣ - انتقاد التهكم الابداعى بطريقة تحاكي
٥٠	الهجلىة

- ب - فلسفة مراحل الوجود ٧١
- ١ - المرحلة الجمالية ٧١
- ١ - الرغبة ، أساس الحياة الجمالية ٧١
- ٢ - الاغراء بوصفه فناً أقصى ٧٤
- ٣ - إخفاقه الجمالي ونقصانه الأساسي ٧٦
- ٢ - المرحلة الأخلاقية . - الحب الأول
المتفتح في الزواج هو حقيقة الانسان
السوي الأخلاقية ٧٧
- ٣ - المرحلة الدينية ٨٠
- ١ - الذاتية المتوترة على المستوى الديني
هي أعمق واقع ٨٠
- ٢ - تعذر البرهان النظري على
وجود الله ٨١
- ٣ - ضرورة البرهان على وجود اله شخصي ٨٧
- ٤ - المرضي الديني هو الذي يحوّل
الوجود ٨٩
- ٥ - هذا التحول داخلي كله ٩١
- ٦ - الخطيئة نظام واقع يتنظم
من تلقاء ذاته ٩٣
- ٧ - اليأس - الفضيحة وجدل الايمان ٩٥

- ٨ - جدل الخلاص الحقيقي هو الألم
أمام الله ٩٨
- ج - الفكاكة التهكمية ، مقولة جدلية للنضج الروحي
والوجود المشخص ١٠٠
- ١ - الفكاكة التهكمية وتخوم الدين الأكلقية ١٠٠
٢ - الفكاكة التهكمية والمجهول الدين ١٠٢
٣ - خاتمة . - سر مصير المفكر الذاتي ١٠٧

PIERRE MESNARD

Mesnard & Fils

KIERKEGAARD

Texte traduit en arabe

par

Adel Awa

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Paris

كيريفارد

● حياة فذة ، ومأساة روحية ، عاشها فيلسوف شاب عاشق ، حملته دمايته و« الشظية في اللحم » ، داؤه الجنسي الخفي ، على فسخ خطوبته وعلى اخفاء نزعة دينية إشكالية جعلته ينظر - بتهكم - إلى الكون من خلال حبه المخفق جسدياً ، المعجز روحياً ، فصار أب الوجودية ، ورائدها البكر ، وهو يظن ان معجزة ستعيد إليه خطيئته كالتي حدثت عندما هم (ابراهيم) بذبح ابنه تلبية لأمر الله . . .

● وجد في حياته كل حياة ، وجعل لكل حياة درباً ثلاثي المراحل : المرحلة الجمالية ، فالأخلاقية ، فالدينية هذا كله جو من تعمق التهكم والفكاهة التهكمية الفلسفة وتنتهي ، بحثاً عن الحقيقة في الذات الموضوع ، وفي اليأس ، بل في اليأس من اليأس ، وه سائر الآمال . . .

Bibliotheca Alexandrina



0351173

